الكاتبة بوالديار رباب

إهداء

ترددت كثيرا لأكتب ما تحمله يدك الآن.

نصحني الناصحون بتأليف كتاب تحفيزي، أو معالجة آفة اجتماعية، أو مجموعة قصصية منوعة، لكنني تركت كل شيء لأهله واخترت أهلي، إني منك وإنك مني.

شعور يسكنني، يهزني كلما سمعت اسمك. فلسطين!

لكل من لا يملكون إلا الدعاء، لمن تشابهت قلوبهم في الحلم بنصرتها، لمن قست قلوبهم وتبددت كلمة" الإنسانية في ضميرهم" هذا الكتاب لكم.

مقدمة:

كتب كاتب فيما كتب أن المقدمات بدايات لا يقرؤها أحد، فما رأيك لو كانت البداية صرخة يا سيدي؟ صرخة.

غزة في العز ولو هزها الأزّ

والعرب في غفلة ولو انتهت الحفلة

والأجانب تحارب كقط ببيْت يُطالب

والزمن فيها يمر والحياة فيها تمرُّ. فلسطين

هذا يكتب عنك قلما وآخر يقيم لك فلما

والسيف في غمده يزين المخازن والمتاحف

أما آن الأوان كي تستعيد القدس المجد والأمان؟

أم أنكم ألفتم مشاهد القصف حين ينقلب الشتاء صيفا

إن شمس القومية أفلت.

ومشاعل العروبة قد انطفأت.

وتوارى ال"نحن" خلف الإعلام

وتعود ال"أنا"على الأفلام

يرى الإبادة والإجرام، مرددا إنه لحرام!

غزة المحتلة، مقيَّدة كاِقتران حرف العلة بأفعال ماضية مستقلة!

صرخة تدوي تفوق صوت عوي المستعمر الغاوي

ألا تسمعون؟ مالكم ألا تبصرون؟ أأنتم مقيدون؟

أم خلف عجلة الزمن سائرين!

تاركين إخوانكم في سكرات العذاب غارقين!

غزة تصرخ تجابه وحيدة من مكيدة إلى مكيدة

من الأقوام القريبة والبعيدة!

تحالفوا ضدها فباتت فيهم وصمة عار. يا للعار!

بل أنتم العار والنفاق والشقاق،

دفنتم شيم الأخلاق، وأدتم الغيرة في التراب تحت الساق!

صرخة وطني أنقذوه! معه الهم اقتسموه!

دعونا نعتنق القومية من جديد

و نتذكر زمن فلسطين البعيد !

ألف سؤال!

قلمي توقف عن مساندتي.فرت حروفي من بين أناملي وأوراقي تناثرت كأشلاء هامدة بنكهة قدسية، بقيت معزولا أجيء وأذهب دون وجهة وعنوان بعد مغادرتي للقدس. حين كانت أصوات المدافع والرصاص تتسابق مخترقة آذان وطني حسبتها ظلمة، ثم أدركت ما أحلك من ذلك ظلمة، إن الغربة عن فلسطين لا يضاهيها ظلام.

لازلت يا أمي ألتحف الوشاح الأبيض والأسود حول عنقي مرة، وألف به رأسي دفعا للحرارة مرة أخرى، أصحبه معي أينما حللت فيخيل لي أنني عدت للتو من حرث الأرض وأنني التقيت ليلى فزال كل التعب. الجو هاهنا عربي بحت، لكنه غريب عني، أو أنني الغريب عنه. لا وجود لليلى ولا أبي وسامر، والأبشع من ذلك غيابك يا أمي.

إن الشوارع هنا نظيفة تماما، لا شظايا تترامى فيها ولا دماء سائحة ولا أرواح تسكن الأطلال، أدام الله أمنهم. تعرفت على إخوة عدة يحبون القدس كحبي لها، أتذكرين كم حاولت إقناعكم بالقدوم معي؟ لقد نعتموني بالجبن والغلبة يوم الوغى. لم أكن كما وصفتم ولن أكون! لكن خوفي من فقدانكم سيطر علي يا أمي.

شعارات ودكاكين باسم فلسطين تعم الأرجاء، وأطباقنا من كل نوع وصنف تطبخ، الكباب الذي يعشقه سامر وورق العنب المحشي الذي يستطيبه أبي والشاي الأخضر الذي يفوق اللذة على يديك، وأين يديك؟ هذا ما يزيدني رهقا!

قبل آخر قصف تعرض له حينا التقيت بليلى في طريقي إلى المنزل، كانت شاحبة الوجه مسودة اللبس كوطننا، لكن هذا لم يخف جمال عينيها البارع ولا ومضاتها الفتانة. ما حل بقلبك القوي الذي لا تهزه المصائب يا ليلى؟

لم أقل ذلك بفمي لكن عيناي تحدثتا مكانه، فما كدت أكلمها إلا وأدركتني تعانقني بصمت بالغ قطع شرايين فؤادي الذي وهبتها إياه. أخذت أطراف أصابعها بين يدي معيدا سؤالي عليها، زمت شفتيها المكسوتان بغبار الأيام لتخبرني أن أهلها سيعبرون الحدود هذه الليلة، كدأب الفاشلين فهمت القصد وأدركت أنني سأغدو الليلة بلا ليلى.

استأنفت قولها بلا حول ولا قوة منها ببرود تخفي به حزنها: "علي الذهاب معهم، لا تيأس، لعل الأيام تجمعنا كما فرقتنا".

لم أرد، تمنيت لو هاجرنا سويا، وأعلنت استسلامي بعدما انتهى خصام قلبي الذي يريد اللحاق بها وعقلي الذي استسلم للبقاء. عدت للدار أين كان يجلس أبو أحمد يرتل آيات من سورة آل عمران فجلست أتأمله حتى أكمل "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون".

- تقبل الله.

- آمين منا ومنكم. ما بك تبدو حزينا كئيبا؟ هذه حال الدنيا يا بني، وماذا إن غادرت ليلى؟ البنت يلزم تروح مع أهلها وانت لازم تفكر بمصلحتها !

-كيف علمت بالموضوع؟

-عمك أبو الطيب حكاني قبل ما يمشي واعتذر . يا بني هاذي حال الدنيا.

-هاذا حال فلسطين يا بيِّ ،خلينا نلحقهم... بترجاك!

وهكذا قاطعتني بقولك: "سنظل هنا فإن متنا نموت معا وإن عشنا سنحيا معا وانتهى! وها هو ابريق الشاي، هاك فنجانك يا أبا أحمد"، وانضم إلينا سامر بعدها لنبيت متسامرين حول ابريق الشاي المتواضع حيث كان آخر اجتماع ذكرنا فيه أهلنا ومدى اشتياقنا لأحبابنا.

ثم يراودني السؤال الذي يقتلني في اليوم ألف مرة، لماذا طلب أبي مني بالذات إحضار الماء؟ بل لماذا أحس بالعطش أصلا؟ ولم لم أجد سوى كتل النار تخرم المكان هنا وهناك تتسابق لالتهام فرائسكم؟

لازمتني الوحدة، فانخرطت في السياسة وانضممت لأحد الأحزاب، وهبت نفسي بعد فقدانكم لمساعدة الفلسطينيين بما أقدر. كنت أهرب اللاجئين عبر الحدود لاتصالاتي الخارجية الكثيرة ومعارفي مع بعض الإخوة العرب، كانت المؤونة والأسلحة والذخائر العسكرية تمد لنا ما يزيد حماسنا للاستقلال. رأيت بين ذلك آلاف الأرواح تسلب وآلاف

المسنين أجسادهم في الدماء تغرق وآلاف الرضع عبراتهم تحت الطوب تدفن، ببساطة صار الخراب جزءا من حياتي يا أمي. مرت الأيام لا يجددها إلا قصف تلو الآخر!

وفي أمسية شتوية، وبينما أجلس مع بقية الثوار ننتظر آذان المغرب حدث ما غير حياتي للأبد.

- أرسلان: يا الله لو تعرفو قديش بحن لزمردة؟ اشتقتلها خيرات الله، يا ترى بتكون تزوجت؟

ساد صمت عميق أدرك أرسلان بعده أنه فتح دفتر أوجاع قديم، ليتذكر الكل أحبتهم. ثم أخرجتنا من هالة الحنين أصوات خفيفة تصدر من وراء أحد تلال نابلس، اقتربنا جميعنا نترقب بأعين مركزة وآذان صاغية في غسق الليل، لكن ما رأيناه اخترق أبصارنا وظلمة الليل.

- أحمد: شو عم تسوي بهالليل لحالك يا اِختي؟

لا إجابة، سوى الصمت ، كانت مغطاة بشال أسود لا يظهر منها إلا عينيها. اكتفينا بأخذها إلى الخيام حتى يهدأ روعها، أعدنا عليها السؤال لترد:

كنا قد قررنا الهجرة كدأب الجميع، لكني لم أكن أريد ذلك أبدا، فلو هجر الكل الوطن خوفا من الموت فإنه حق لامحالة، وإن هجروه فرارا من العدو فلا عدو أعظم من الخوف والجبن. لذا عارضت أهلي فيما قرروه، ولأني فتاة فرأي لا يغني ولا يسمن، فخططت لما هو أدهى، فعند وصولنا لحدود نابلس افترقت عنهم خفية، وكلي حزن وأمل باللقاء.

- أصغيت ذاهلا، وإمتا صار هاشي؟

- اليوم بس.

- في شي بيدور براسك؟

طأطأت رأسها كأنها تستعد لما ستقول: راح أنضم ليكم!

اسمها قدس، تراها كفرس عربي جامح أطلقه صاحبه ليستمد الطاقة من الحرية، فيطلق العنان لجهده ويسعى حيث يقوده قلبه، إنها مقدسة كاسمها.

وهكذا انضمت لنا قدس فوق رغبة البعض، كنا نحترمها كثيرا لأنها امرأة بألف رجل بين الرجال لا تهاب غير الله، لبؤة من جذور فلسطينية، خاضت المعارك كما خضناها، وأصيبت كما أصبنا حتى قدر لها أن تصاب إصابة خطيرة ذات يوم فاضطررنا للانسحاب ومغادرة المكان.

تقاسمنا المسؤوليات فقررت أن أهتم بقدس بحكم أنني أقربهم لها، أما أرسلان والبقية فودعناهم حتى إشعار آخر.

الفراق إحدى مزايا العيش في فلسطين, والوداع وجبتنا الرئيسية خلال الأيام. ودعت الجميع بقلب مشتاق وفكر شريد ونظرات تقفز بين أشجار الزيتون، كنت مستعدا لخسارة كل شيء إلا قدس. غادرت القدس مع قدس وقطعنا الحدود متجهين نحو أقرب مشفى, غمرنا الكل بالترحيب والتقيت بزميل لي يدعى حمزة. حمزة صديق مصري الأصل خفيف الروح كثير الدعابة، كان من هون علي سوء حالي وسوء ما لحق بحبيبتي.

- ما تزعلش ياحمودة مراتك حتبقا أحسن إن شاء الله ونحنا كلنا بمصر بنحبكو والله

قبل أن أجيبه وضعت سطرين تحت "مراتك", ياه نسيت الموضوع جملة وتفصيلا، بينما أخاصم نفسي لإخباره بالحقيقة قلبي يأبى ذلك، فلم ينته هذا الخصام إلا حين قاطعتنا الجراحة وهي تقول بنبرة جدية كلها رزانة: المدام بتاعك فاقت بخير بس..

- بس إيه يا دكتورة؟ قالها حمزة, أما أنا فكاد فؤادي أن يمسك عن النبض.

- للأسف الرصاصة مست الرحم بشكل خطير, يعني بصراحة مينفعش تخلفو ولاد. وحاجة تانية يا حمزة الأمر سر بيننا مينفعش تسمع الحكومة أني منخرطة في حزب ولا كلام من النوع ده.

- طمأنها حمزة بأن سرها محفوظ، شكرته ثم غادرتنا وتركت ببالي ألف سؤال.

الله الآجر

أحس بثقل في جسمي ووجع قوي يسار رحمي، صداع شديد لم أستطع بسببه فهم شيء ولا حتى أين أنا وماذا حصل, أظنني تشاجرت مع بسام. لا, أين أنا يا إلهي؟ فتحت عيني على أنين أحدهم يجثو بالقرب من سريري, كنت أتأمل الغرفة الغريبة التي تحتويني بعينين شاخصتين ثم وضعت فجأة كف يدي مكان الجرح.

غادرت دمعة رقيقة عيني، متجهة نحو الوسادة التي لربما قاسمتني أفكاري خلال المدة الفارطة ، حاولت الجلوس ورفعت الستار الذي كان يغطي وجهي ثم نظرت لكتلة الجسم الموجودة أمامي: إنه أحمد! لقد نام على الأرض من فرط التعب والتفكير. تذكرت يوم سمعته خلسة يحدث أرسلان, أحزنتني قصته كثيرا, هذا الرجل الشهم الشجاع الذي لا يزال قلبه معلقا بليلى قد أصاب مكانا عزيزا في قلبي منذ عرفته . يبدو أن حبهما كان حقيقيا عكس حبي لجوزيف الذي اندثر فور رؤيتي لأحمد. أيعقل أنني لحد الساعة لا أعلم من الحب شيئا؟

كاذب من يدعي أن الحب يأتي في العمر مرة, فالحب أمر نتعايش معه طول الحياة, الحب شيئ مستمر ومعنى دائم لاينتهي.

بينما أحاول الفرار من أفكاري التي تلازمني أفاق أحمد فأسرعت بإسدال الستار على وجهي، تهلل وجهه حين رآني جالسة, كم يسعدني أن أحدهم يهتم بي بعد موت أبي وهجراني لجوزيف

- الحمد الله على سلامتك.

- الله يسلمك. قلتها وقد اعترتني قشعريرة في جسدي ألفتها خلال جلوسي مع أحمد طوال الشهرين الفائتين.

- سيدة قدس, الدكتورة أخبرتني أنك أصبحت بخير لكن هناك شيء يجب أن تعلميه حتى لا تفكري مجرد تفكير أني قد أخفي عنك أمرا.

- ارتعدت وأومأت برأسي: قل ماذا؟ ساد الصمت بيننا فقلت مجددا: أعلم أنك لا تخفي عني أي أمر فتكلم بارك الله فيك.

- أولا كل من هنا يعتقد أننا.. أننا زوجان.

ساد الصمت مرة أخرى بينما علت شفاهي بسمة مفاجئة لحسن الحظ أن الستار يخفيها، ثم استأذن َقائلا:

- آسف, صدقيني لست صاحب الفكرة فهم من يعتقدون ذلك، لا علاقة لي بالموضوع، أعلم أن هذه المغالط لا تروقك كما لا تروقني؛ لكنها مجرد سوء فهم فقط!

بينما كان يبرر فعلته كنت مدهوشة، كيف لشخص أن يمتلك هذا الصدق والعفاف! كنت أود أن أرد عليه بأنه مخطئ, لست صارمة معك ويسعدني أن أكون زوجتك ولو مؤقتا, لكني اكتفيت بقولي: لا عليك,لا بأس.

بينما يحاول أحمد جمع قواه كي ينقل لي كلام الدكتورة الذي سبق واكتشفته, فلست غبية ولا ساذجة لأعرف أن رحمي لن ينجو وإن نجوت, كنت أسكت ضميري الذي يؤنبني

لإخفاء حقيقتي عنه ولذلك عزمت اخباره بأمري مهما كلفني ذلك. وقبل أن ينطق أحمد ليقول ما لديه قاطعته قائلة: أعلم ما ستقوله, الله الآجر يا أخي, لكنني أيضا أملك ما علي قوله ووجب عليك أن تسمعني للأخير.

ظهرت ملامح الحيرة على وجهه، إلا أنه كدأبه اكتفى بقول: كلي آذان صاغية لك.

~

نابلس، سكانها صامدون كما جبالها لا يهزها غثاء الخراف الصهيونية ولا يدميها نحيب الأشاوس الصغار الذين جعلت منهم إسرائيل عدوا لدودا, كيف لا وهم حياة واستمرار لآل فلسطين، فولادة طفل جديد على أراضي غزة تعني نصرا لها وهزيمة لبني الصهيون الأراذل رغم أن الولادة شيء طبيعي كما الموت إلا أنها في فلسطين تعني مقاومة، تعني حرباً مكسوبة.

فلسطين تلك المدينة التي تتوسط الدول كقلب نابض, لكنها ترى لهم كشبح، كأنها ورم سرطاني توضع في مركز الجسم, بيد أن الجسم يبكي لإصابة عضو فيه وفلسطين تبكي لوحدها.

يحزنني أنها كذلك كما يسعدني بنفس القدر أنها لا تلبث أن تقاوم، قساة هم المقاومون على أراضيها! لا ينفكون عن التكاثر والاستمرارية في حين أنهم يعلمون مدى صعوبة الأمر. أحيانا أتسائل لو كنت من عرق فلسطيني فهل سأنجِب ولدا أعلم أنه سيسمع دوي القصف قبل نومه لا موسيقى هادئة؟ ولد أعلم أنه سيرى أرواح أقرانه تسبح في سماء الشوارع المزينة بالأحمر بدل أن يشاطرهم لعب كرة القدم؟ ثم لا ألبث أجيب سؤالي: ليتني كنت فلسطينيةً.

على جبال نابلس الشاهقة تتراءى للعيون أنها مكان هادئ لا ضير فيه ولا ضيم، الحياة تبرز طبيعية؛ شمس تشرق كل يوم وعصافير تخط أعشاشها بنفسها ورائحة الشاي

الصباحي الذي لا تخلو منه كل دار فلسطينية يملأ المكان. كل شيء عادي جدا، حتى تتعالى فجأة أصوات المسلحين يهرعون، الكل يهمس ويخفي أكبر قدر من أهله وجيرانه في أنفاق قد حفرت ليلا بين تعب وعرق ورائحة الطين القوية في حين قد بات الآخرون يتخامرون بين ثلة من النساء والمعازف والذهب. اذهبوا للاختباء هيا!

يخفي الكل أحبابه, وتستمر الحرب ما قدر لها أن تستمر مخلفة ورائها قلوبا هتكت من فرط الترقب وأرواحا أزهقت دون وجه حق ونساء ترملن وأمهات قطعت فلذات أكبادهن, لينتهي المشهد أخيرا بلوحة يغلب عليها الأحمر القرمزي كانت لتكون مثيرة للإعجاب لو رسمها أحد الفنانين من العالم المحيط بهذا البلد. يخرج بعدها هؤلاء المحكوم عليهم بهذه اللعبة السخيفة من جحورهم؛ منهم من يكفكف دمعه، ومنهم من يسرع لتفقد أحبابه, ومنهم من يحضر عرسه الليلة. أرأيتم شدتهم؟ لا يكفون أبدا عن المحاولة! وهكذا فاليوم هنا يصبح بالبكاء ويمسي بعبارات التهنئة للعرسان. في ظل هاته الظروف غير المتجددة يقبع أحمد في أحد مغارات الجبال مع مجموعة من المقاومين الآخرين، بعدما استطاع العودة مع قدس, تلك الفتاة التي تداوي جراح جسدها وتسكت جراح قلبها.

- أرسلان أتعلم شيئا؟ في رأسي ألف فكرة تدور, أحيانا أتمنى لو كنت مجنونا أو لو أدخل في غيبوبة دائمة تريحني من هذا التفكير المستمر، وأحيانا أتمنى لو تصيبني رصاصة صهيونية بين عيناي.

- أحمد إستغفر مولاك يا صاحبي مابك؟ إنك مذ رجوعك من مصر وأنت تحمل شيئا من السواد حول عينيك, إنك متغير نوعا ما وهذا لاحظه كل الإخوان فسألوني وفندت أسئلتهم بأن ليس بك عارض, إن استسلمت فما الذي سيحدث لنا؟

أخذ أرسلان يطيل النظر في تلكما العينان السوداوين اللتان توحيان برجل عربي شهم، بينما أخذ الآخر يتنهد مرارا حتى ظن أرسلان أن كل الأكسجين قد نفذ في ذاك الغار. أخذ

أحمد يمسح بكفيه على جبهته ويضغط على ناظريه كأن به صداعا شديدا، أعاد النظر لأرسلان الذي لم يغادر مكانه ولن يغادره حتى يفهم الموضوع.

- حسنا, أظن أن الله رزقها مكانا عزيزا في فؤادي ، أظنني أحبها يا أخ!

- وما الخطب يا أحمد؟ أفي ذلك ضرر؟

- إنها تخفي ماهو أعظم يا أرسلان، إنها متورطة في مقتل ضابط إسرائيلي. ذاك الضابط نفسه كان أب الشخص الذي أحبته.

- جميل! لا أدري سبب انفعالك حد الوقت، وماذا إن قتلت أحدهم فنحن نحيا من أجل هذا؟

- أنت لا تفهمني يا أرسلان، أنا متأكد من أن جوزيف يلهث ورائها ولن يغمض له جفن حتى يمسكها.

فغر أرسلان فاه وأخذ يفكر مليا من هو جوزيف، بينما راجع أحمد أفكاره واعتقد أنه من الأحسن أن يفصل لأرسلان كل الأحداث حتى يتسنى لهما مناقشتها، فهما صديقان منذ أيام الطفولة ،دائما ما أسند بعضهما البعض ،و حملا أحزانهما سويا ، حتى قصتهما، تتشابه ،فأرسلان هو الآخر نهب الاحتلال أبويه وفرَّقه عن حبيبته ،ورمى به إلى مصير قاسٍ على شاب مثله!

~

في إحدى المناطق التي عانت ولا تزال تعاني أعباء الحرب تقبع إحداهن, تموجات وجهها المتداخلة توحي أنها عجوز شمطاء بلون أبيض يغزو خصيلات شعرها الذي يتساقط تدريجيا. عيناها الكئيبتان يخيل لمن يراهما أنهما متحف للبؤس؛ يزوره البائسون من مختلف أقطاب العالم يتأملونه مليا ويسعدون بأداء التحايا له، فمن منا لا يحب أن يرى

شبيهه ويأخذ معه صورة ذاتية. يداها المصفرتان تبرز خلالهما شرايين قد اخضرت كأنها عروق أشجار تشبعت بالمياه الجوفية فشربت حتى فاض الماء من حولها فنمت طحالب ضارة فتكت بثمارها. مخيلتها ما زالت تضج بتلك الذكرى الماضية وليس من الصائب أن نقول ماضية, فلو كانت ماضية لما بقيت تذكرها لأجل غير مسمى لتعيش معها كأنها للتو حدثت.

بعض الذكريات لن نستطيع ولو افتدينا بملء الأرض ذهبا نسيانها, فتظل مقيمة بداخلنا تارة تثير عزاء وتارة توقد عرسا. وللأسف فقلوبنا تعاني تلك التبعية للماضي؛ وبين الماضي والقلب وسيط يدَّعي البراءة، خلايا دماغية تذكرنا بالأسوأ الفائت حتى نظن أن لا سوء بعده، ثم تعيد علينا الأحسن فنظن أن لا أحسن بعده، وقلوبنا معلقة مرة تنزف كجرح قديم ضجر منه صاحبه فنزع عنه القشرة العليا فارتمى يبكي دما. كيف لا وقد أزال ستره وأبان عورته؟ ومرة يرقص فرحا, حتى وأنه في فرحه مريب ولا تفنيد لذلك فهو قد عرف الحياة بحزنها لا بسعادتها فظل يقبل على الحزن بثقة العاشق وألفة الحبيب ومعاشرة بالمعروف. هذه سجية قلب البائس, وقلب قدس ألف تقشير الجراح.

ربما لم تكن بهذا الحال قبل أن ترى أباها يُزف أشلاء إلى مقبرة جماعية ذات يوم! فهو الذي كان سندها، يرافقها لجامعتها، يبث فيها الأمل، ينسيها أعباء الحرب بكلمات عذبة تطير بعد سماعها فرحا, يعدها ويمنيها بمستقبل عائلي هادئ في أحد المدن الخالية من ضوضاء الحروب. أي مدينة كان يُحتمل فيها العيش بأمان, إلا غزة تلك التي لبست ثوب السواد. لكن الحياة ليست بالهينة، فكم من عروس تحيك ثوب العرس في بيت أبيها بينما يحاك لها كفن بذات اللون, وكم من شاب بات على لفافة سجائر وأصبح في قبره مدفونا. وذاك الأب الشغوف الذي تحبه قدس كأن لا رجل قبله ولا بعده قدُكتب له الموت قبل أن يغادر مع عائلته المدينة بساعات.

- قدس, الآن ستتحقق جميع أحلامنا بإذن الله يا حبيبتي!

- إن شاء الله نصل بخير فقط. قال بسام ذلك ردا على أبيه زاما شفتيه, فهو لم يحبذ يوما البعد عن فلسطين غير أن إصرار والديه وأختيه جعله يغير رأيه.

- قدس, الآن سنعيش بأمان يا أختي، سنطير فرحا.

- حبيبتي لماذا هذا الصمت؟ لم تفق من سهوها إلا بعد أن وكزها بسام.

- آسفة يا جماعة شردت قليلا.

وبالطبع فليس لهذا الشرود تفسير غير الخوف. يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن كل متوقع آت, ربما أراد أن يشير للتفاؤل بطريقة أخرى أقرب منها للإيمان, فانتظار العقيم لمولود ليس تفاؤلا بل هو إيمان بالوهاب الذي وهب يعقوب لإبراهيم وقد بلغ من الكبر عتيا, وغالبا ما يكون التفاؤل في البدايات فقط, إنه يشبه اللهفة في الحب، يشبه كذلك صبيحة أول نهار من رمضان, لكن ماذا إن اقترن هذا التفاؤل بالحدس. وهذا حال قدس, كان حدسها أقرب للتشاؤم. إنها لم تكن بتلك السجية التي عرفت عليها المرأة الفلسطينية, لربما هذا يرجع لدلال أبيها المفرط لها, والذي انطفأ بوفاته. صحيح أنها كانت تعيش على تراب غزة لكنها لم تحس بالانتماء إليها يوما، لذلك كانت تريد مغادرتها سريعا، ربما كانت تراها لعنة أبدية!

هذا هو وجه الشبه بين الحب والوطن، فهناك قلب نعيش فيه غير أننا لا ننتمي إليه كما هناك وطن نتنفس هواءه ونجلس في ظله ونشرب أنهاره لكننا لا نحس بالانتماء له, والعكس بالعكس. وإنه جدير أن نشير لهؤلاء المقاومين الذين يقتاتون على قسوة الجبال مؤمنين كل الإيمان أن لديهم وطن ينتمون له، يحبونه ويريدون تحريره واسترجاعه. هذا هو الانتماء الحق!

لنعد الآن لذلك القصف الذي حدث عند حدود نابلس والذي نجت منه قدس وأمها فقط، أحظ أم قدر؟ كل ما أرادتاه أن تمشيا قليلا قبل مغادرة البلد وذاك القليل الذي أرادتاه قطع قلبيهما

إلى أشلاء كأشلاء أحبابهما. يقال أنه لا يحس بحر الجمر إلا من داسه, والأمر صحيح, فمن يحس بالعاقر إن لم تلد؟ ومن يحس بالفتاة التي تأخر زواجها؟ ومن يفهم مشاعر من رسب في دراسته؟ ومن سيحس بالعذاب والخراب الحاصل في أراضي غزة إلا من رآه بأم عينيه؟ وقدس لأول مرة رأت ذاك الهلاك، رأته يفتك بأبيها وأخيها وأختها, رأت ذاك الخراب نفسه الذي كانت تصوره كاميرات الصحف عن بعد, رأته عن قرب. لا نعلم المدة التي نستطيع خلالها الخروج من أزمة حلت بنا، فهي متعلقة بمدى فظاعة الموقف. لكن هناك أزمات لا تكفينا حياتنا كلها حتى ننساها. وهاقد مرت سنتين على أزمة قدس, غير أن قلبها لازال يقيم العزاء. لازالت الأم وابنتها تذودان عن نفسيهما دون رجل, لربما تنتظران مجيء موسى فارا من قومه, هاتان المرأتان هما أمي وأنا يا أحمد.

بل حيَّ على عينيك!

يقال أن الحب لهفة، ولهفتي في هذه الحياة كانت قدس. لا أذكر يوما أنني اتفقت مع أبي في موضوع ما، ولعل تلك الآراء التي اتفقنا فيها لم تتجاوز عتبة باب منزلنا، فقد كانت علاقتي

به مشحونة جدا! لكنها في كل حال لن تفوق سوء علاقتي بأختي ولربما هي الوحيدة التي أصادق أبي ضدها. كان لندى معتقداتها الشخصية إذ لا أذكر يوما أنها ابتسمت عند مشاهدة قصف طفيف لغزة بالرغم أنها لم تزرها يوما, وهذا ما جعل أبي يسأمها حد الحقد كونه ضابط الترسانة اليهودية، ندى لا تتسم بالخجل الذي نزرع فيه بناتنا منذ الولادة، إنها لا تؤمن بالأحكام اليهودية أبدا، ولا تؤمن أن اليهود لهم أرض منهوبة اسمها فلسطين يريدون استرجاعها. ببساطة هي تعتنق دينا مختلفا عن الإسلام واليهودية، إنها تعتنق الإنسانية حسب مفهومها. لا أذكر عدد المرات التي رأيت دموعها تنهمر عند مشاهدتها الأخبار العاجلة، أي رقة وحساسية تلك! كانت علاقتها معي ومع أبي سطحية ثم صارت أكثر سطحية عند موت أمي، إنها وحيدة تبحث عن شيئ لا أستطيع فهمه، ولا أظن أنها تبحث عن زوج خاصة وأنها لا تطيق ذلك الكولونيل الرأسمالي رفيق أبي.

أما أنا فأتبنى سياسة الحياد، أو ربما الأنانية، كانت أحلامي تقتصر على الأكل والشرب بأمان.لا تهمني غزة ولا الصهيون، وهذا ما دفع أبي لشتمي مرارا, فهو يريد مني أن أصبح ضابطا مثله وأن أسترد الأرض كما يزعم. وكنت بعد كل نقاش حاد معه أود أن أقول له جملة واحدة غير أني لا أجيد تعبيرها، وقد حفظتها عن ظهر قلب بعدما التقيت بقدس: فخار يكسر بعضه! هذه هي الحياة توزع أدوارها علينا بحذر شديد. جلسنا ذات أمسية حول مائدة العشاء ويبدو أن أمرا طارئا قد حدث! ملامح أبي توحي بذلك. قال وهو يمسح شفتاه بطرف المنشفة: احزما أمتعتكما يا أولاد, أخيرا جاء دوري لزيارة غزة.

ابتلعت اللقمة التي أكلتها بصعوبة: وماذنبنا نحن يا أبي تأخذنا لمكان حرب نتأذى فيه؟

- زم شفتيه قائلا: أنت مخطئ يا جوزيف، هناك سننعم بأمن مادي ومعنوي، ولا أحد يناقشني في هذا،لا أستطيع تركككما هنا!

حمل نفسه وغادر الغرفة, أما أنا فالتفت إلى ندى التي لم تنبس ببنت شفة، التفت وكلي أمل أنها ستشاطرني الرأي للمرة الأولى، لكن ذاك الأمل خاب، فقد همت بلملمة الصحون والابتسامة تعلو فاها. لربما كان حلمها منذ البداية أن تزور غزة!

يا إلهي كيف لإنسان أن يستطيع العيش بمعزل عن العالم؟

حين غادرنا بريطانيا وتوجهنا نحو فلسطين أحسست كأننا ننطلق من الأرض إلى أحد الكواكب التي اكتشفتها ناسا، حصار في كل مكان، روائح مختلطة مع دم الشهداء، أصوات الشوارع تضفي حياة للمكان. كل هذا لم أكن لأعبر عنه، بل لم أكن أفهمه من قبل، فكل شيء تغير منذ أن حططنا رحالنا على أراضي غزة. كان ذلك حوالي الساعة الرابعة صباحا إلا ربعا، ربيع ساخن وحرارة مرتفعة لكن الإنتعاش عند هذه اللحظة فريد من نوعه، لهذا طلبت من أبي أن أبقى خارجا قليلا، أذعن لطلبي بعد أن حاول كثيرا إقناعي بأنه لا أمان، فأجبته: الآن كل شيء يسير حسب ماهو مقدر. دعنا لا نهول الأمور!

بدأت أمشي بخطوات ثقيلة أتنفس خلالها أوكسجين الصباح، وإني علمت بعد مدة من مكوثي هنا أن الأوكسجين لا يزور هذه الأرض إلا في بداية اليوم ثم ينسحب حتى يترك الأمر لذلك الخراب ،أين تتضارب روائح الدمار ، فكأنه ينجو بجلده منها...

أكملت خطواتي أجوب بعيناي الأزقة القدسيَّة ؛ تارةً أتأملُ نجومها وتارةً أخرى جدرانها ، كأنما مصابيح السماء تحرسُها من شرارات الحقد التي تملأ أعين الحاسدين فبعد مدة حقيرة من حصارها مازالت تقبع هذه الحيطان شامخةً، وقد خلتها كشيخ شارف على التسعينات يريد أن يُعمَّر وماهو بمزحزحه !

فجأة انقلب الجو، ففي جوف هذا الهدوء تعالى صوت ينادي بالصلاة؛ علمت من ثقافتي بهذه الديانة أنه آذان الفجر، الصراحة أني لم أكن متشددا تجاه هذا الدين، لكن غالبا ما كانت

تراودني أسئلة كثيرة حوله؛ فمثلا ما الذي يجعل بشرا ضعيفا يقوم من نومه في هذا الوقت؟ أليس هذا جورا؟

ثم عدلت عن سؤالي بعد أن تذكرت صورتها حين كانت تصب الماء للوضوء فعلمت الحكمة من ذلك، بل وجدت جوابا لسؤالي.

كنت أحسب أن مصباحي يضيء عتمة الليل فقط، لكني اكتشفت أنه أضاء عتمة حياتي، وجهت مصباحي نحو الصوت الذي سمعته فإذا بها نجمة من النجوم التي كنت أراقبها أحسبها نزلت الأرض لتباركها.

~

إنه يوم ميلادي الثاني بعد العشرين، كل شيء روتيني ممل، فمذ تمزقت عن أحبابي لم يبق لي متسع لمزيد من السعادة ، أحسني قد ضيعت الكثير من أيامي، حتى بعد حصولي على شهادة في تخصص اللغة الإنجليزية، فإني سئمت نفسي ودائما ما أسألها: ما الفائدة في ذلك؟ ليتني عملت على استغلال وقتي بشكل أفضل. فاتن تلك الجارة التي لم تتجاوز الخامس عشر من عمرها قد أكملت بالأمس حفظ كتاب الله، أما أنا فلا هدف ولا نجاح، كنت أحسب قبل موت أبي أن الدراسة والسفر والهدوء والصحة الجيدة هم ركائز الحياة السعيدة، فلا أذكر مرة أنني قمت لصلاة الفجر بمفردي إلا بعد تدخل أمي لأستيقظ متململة، أصلي وأنا من النائمين. وأتأفف للحياة العاتمة التي نمارسها في هذا المكان، كنت أشعر أننا نمارس طقوساً جاهلية بدل حياة كريمة ، كأن ننهض صباحا على الدفء، ونبيت مساءً على تخمة، ونسافر نهاية الأسابيع، وغيرها من الأحلام ذات السعادة المؤقتة، أما اليوم وقد انقلب حالي، فإني أحسني شخصًا آخر، تغيرت كلّيا إلا أني أزداد شوقا لوالدي كل ما مرت الثواني، اشتقت حقا لريح أبي، لدعواته ولبسمته، لم أجد طريقة لإطفاء هذا الشوق أبدا، لكن الله يهدي من يشاء. أخيرا اقتنعت أن الصبر وعبادة الله وحبه والإيمان به هو أضمن

طريق لراحة البال، لهذا عزمت الليلة على الاستيقاظ لصلاة الفجر ونزلت لجلب الماء للوضوء من خزان الحي الوحيد. إذ كانت أول خطوة أمضي بها في سبيل الله لا في سبيل نفسي .

بعض المواقف تجعل منا أشخاصا آخرين، جدتي أصبحت طويلة اليدين تنفق مالها على الآخرين كصدقة على روح جدي كلما سنحت لها الفرصة ولم أكن أعرفها قبل ذلك إلا من الأشحة البخلاء. وإني حتما أذكر ميمونة، هي الأخرى زميلة قديمة في الدراسة يتيمة الأب، لم أرها تتأثر لأي موقف أو سبب حتى حكمت عليها أنها من ثلة الأنانيين ذوي القلوب القاسية، إلا أنها انفجرت باكية بعدما صرخ حارس المؤسسة في وجه أمها، لربما فقدانها لأبيها ألبسها قناع القسوة المزيف لإخفاء أخبار المهجة المتضعضعة.

هذه هي الحياة تقلبنا كيفما تشاء، بعضنا يعصر وآخر يكسر فنتحول بعدها إلى كتل إنسانية مختلفة عما قبل، إلا أن هذه الفتاة حسنة الحظ لأنها انقلبت إلى شيء حسن. إن الله يملك القلوب وعليم بها، ومن جمال قلب قدس ابتليت بفقد أبيها حتى تدرك أن لا أعظم من فقد الطريق إلى الله.

هممت باغتراف الماء بالدلو، وأفلته حين صوَّب أحدهم الضوء تجاه عيناي، كنت أعيد وراء الإمام الآذان حي على الفلاح، لاحول ولا قوة إلا بالله حتى أذن مؤذن من بعيد: بل حي على عينيك!

~

لم أكن أعلم أن النجوم تمتلك عينين كهاتين! عقد لساني لكني أطلقت العنان لنفسي لأول مرة قائلا: بل حي على عينيك، ولربما كنت سأكمل قصيدتي المجنونة لولا المسنة التي قاطعتنا: هيا إلى الداخل بنيتي لا أمان هنا.

أطفأت المصباح ، وأسرعتُ بالذهاب خشية الأنظار، ونسيت أن آخذ عقلي وقلبي من هناك ، لربما سقطا رفقة الدلو!

تنفس الليل وهبت نسمات الربيع الليلية تطرد حرارة نهارها، خلى كل واحد بنفسه بعيدا عن ضوضاء الحرب، فجلست أفكر بذاك الصوت الذي سمعته فجر اليوم، من يا ترى؟ علي معرفته! هل أصابتني جنة؟ كنت لا أزال على سجيتي هذه حتى زارني الأرق، فتلوت أذكار النوم وأغمضت جفني ولم أستيقظ إلا فجرا.

~

عدت أدراجي للبيت فوجدت أبي قد نام، أما ندى فهي تتأمل سماء غزة منذ وصلنا، تركتها لحالها فلا أريد حدوث أي خصام معها خاصة وأنني في مزاج روحي مليء بالنشوة، كان فكري يردد كلمة واحدة: سأعود لذلك المكان حتما!

أشرقت الأرض بنور ربها الحافظ الحارس، وسرت روائح الشاي الأخضر في الشوارع التي تضج بأصوات بعض الفلسطنيين وكثير من الغرباء، نزلت إلى الطابق السفلي ارتشفت القليل من القهوة السادة وهممت متحمسا للمغادرة إلا أن مزاجي قد تعكر منذ الصباح ، فأبي حال بيني وبين خروجي .

- لماذا؟
- أشعر بالقلق عليك يا جوزيف.
- لا تمزح معي من فضلك يا أبي، فلو كانت سلامتي تهمك لما أتيت بنا إلى هذا المكان الذي لا يشبه شيئا من هذا العالم!

~

تركت أمي تسامر الجارة وقصدت المسجد لحضور حلقة الذكر التي تنظمها نساء الحي كل يومٍ تقريبا، الوقت يمر ببطء شديد يرافقه ملل صاخب يضفي عليه الفراغ نكهة انتحارية

صامتة، ثم يمر الزمن فندرك بعد شهر أو أكثر أن الوقت مر مسرعا، تناقض غريب، لكن لا عجب، فقد ألفنا الغرابة في هذا المكان. كنت مع بقية الأخوات نتناقش حول القصف الذي سيحدث الأسبوع القادم ، كانت حكاياتنا أغلب الوقت تصف حال بلدنا الذي يشبه المهمه الناتئ بدل أن تدورحول عريسٍ وسيمٍ مثلا. و فجأة لمحت طيفه، كان يبتسم ويشير إليَّ بيديه اللتان اشتقت تقبيلهما وعلى رأسه العمامة التي أهداها أخي بسام له، إنه يرتشف الشاي الأخضر الذي لربما أعدته أمي. ثم راح نظري إلى بنطلونه الرمادي الذي ترجيته أن يشتري غيره لأنه أصبح رثا، طيف كاد أن يكون حقيقة لولا أن هرولتُ لمعانقته فاختفى. انهمرت دموعي كسابق عهدها وانفطر قلبي من جديد، وعادت نفسي تعزيني فيما فقدت مطمئنة إياي بأن القادم أفضل، لقد اختفت روح أبي كما اختفت جثته قبل سنتين في ذاك القصف الشنيع، مسحت تلك العبرات التي لمعت أسفل عيناي ونظرت من حولي فإذ بي ألمح ثلاثينيا بقبعة إنجليزية وسترة تبرز عضلاته مع بنطلون يوحي بثراء فاحش، تأمَّلته سارة ثم نكزتني وابتسمت، بينما لوح عمي حكمت بيديه مشيرا لنا بأن نسرع، فالذئاب الصهيونية تجوع للحوم بنات فلسطين، لكن هيهات.

إلا أني هذه المرة لم أره ذئبا أبدا، بل أحسست أنه مني. بينما أحاول لملمة أفكاري وإخفائها عمن حولي، رفعت بؤبؤ عيني أتفقد الطريق، لكني أبصرت بحرا هائجا خلال الصيف. بخجل غريب وفرحة مجنونة، أنزلت عيني إلى مكانها وهممت بالمغادرة كأني تجاهلت كل شيء!

تشاجرت مع أبي فلم أستطع الذهاب دون موافقته ، لهذا حاولت أن أتمشى حول المنزل لعلّي أنثر توتري على مكان ما لكن كل جزء مني، بل جميع حواسي كانت تواقة لنورها، وعلى حين غفلة لمحت جمعا من النساء المتشابهات في لباسهن ومشيتهن المحتشمةِ، ومن بينهن واحدة قد جذبت ناظري لها إذ كانت منطلقة كلبؤة أليفة قد روضها صياد خبير، حدسي أخبرني أنها ذاتها، وكان لابد لي من التأكد حتى أقطع الشك بالعيون. أظنها ذاهبة

للتسوق، لا، ياله من كلام مضحك وهل في غزة وقت للتسوق؟ ما جذبني أنه لا يبرز من جسمها شيء، مجرد عباءة سوداء تغطيها، على أطرافها ذرات غبار جعلها كالأبلق. لم أتمكن من تبين عينيها من بعيد، لهذا اقتربت بلطف وسلاسة حتى لا يحس كبير السن ذاك! فهو يمتلك نظرا حادا يستطيع من خلاله حراسة فلسطين كلها .

بقيت أتسلل تدريجيا، في حين أنها كانت تخطو بتسارع مع رفيقاتها وعيونهن في الأرض، أحشمة أم خوف! لا يهمني، لابد لي من فعل شيء يدفعها للنظر للأعلى، اه، لا حل لدي إلا الاصطدام بها.

كريشة ضائعة لا تدري أية وجهة تسلك، وفجأة وقعت في أرجاء بركة حديثة البلل، وجنتاها كوهج شمس حين الغروب، حاجباها كهلال العيد في الشهر الثالث عشر، أهدابها كالساجدين في الليالي الطوال لرب العالمين، واللون البني المأسور في عينيها كأسرة شباب فلسطين، كم تمنيت ملامسته لعل فيه بركة تنير حياة البؤساء. تأملت تلك اللوحة المختلطة الألوان المرتبكة الحركة تأملا لا يكفيني ولو ليوم واحد، إني مدمن شرس، وإدماني هذا صعب الشفاء أكيد.

- لماذا توقفت يا أحمد، أكمل الحديث إني أسمعك جيدا.
- لا عليك يا أرسلان سنكمل غدا، لابد لي من تفقد قدس وجرحها، ثم علي أن آخذ نوما عميقا فالتعب نال مني.

أومأ صديقه بالموافقة وتركه لحاله، قام أحمد مرددا اسم الله وذهب لتفقد لوعة قلبه، تنحنح أحمد موحيا بدخوله ليرى قدس بهيئة تذيب القلب.

- تفضل
- كيفك اليوم؟
- كما تراني.

تنهد أحمد عميقا كأنه يُخنقُ بجمل سميكٍ كبؤسه، ولأول مرة نظر مباشرة لعينيها المختبئتين خلف النقاب قائلا: أريد أن أسألك سؤالا. وأرجو أن تشبعي قريحتي بجوابٍ صادقٍ يا قدس، ما السبب الذي جعلك تأتين إلى هنا بالضبط؟

مرت دقائق من الصمت الطويل بينهما، لربما الكلمات تتعاند أي الشفاه تنطقها أولا، وكان لشفتي قدس أول النصيب، فأجابت: كقدر غزة يا أحمد! هل بإمكانك أن تجيبني لماذا احتلت غزة بالضبط؟

كالعادة فكلامها كاف بأن يقنعه ويشفي قلبه المهترئ حزنا على حال حبيبتاه القدسيتان.

بقيت أيام قليلة على يوم القصف الموعود، الجميع مشغول بالحرب النفسية التي يطلقها الاحتلال ككل مرة قبل أن يقدم على تطبيق الدمار ظنا منه بأن ذلك كفيل بقتل همم الأسود وإخضاعهم! وفي خضم هاته الأجواء كانت قدس وجوزيف كالدخلاء، فكلاهما لا يفكران إلا في اللقاء الأول الذي قد يحدث بينهما .

في صباح يوم الجمعة استطاعت ندى أخيرا أن تقنع أباها بالخروج بعدما وعدته بالعودة سريعا، بقيت تتأمل ذاك الخراب الذي يكسو فلسطين كل يوم بدهشة غريبة وحرج شديد وتساؤلات كثيرة تكاد تثير هشيما من النيران داخلها ، دمعت عيناها الزرقاوين كأرماء غزة التي اعترتها الغيوم. وجرت أسدام مترقرقة على خديها .

- ليت الدموع تجدي نفعا يا أختي. قالت قدس
- عفوا!

التفت ندى متوترة لترى صاحبة الصوت ، بضع دقائق كانت كفيلة بأن تنشئ سيول من الألفة بين الفتاتين، فالمتشابهون سريعو الألفة!

خرج جوزيف الولد المطيع باحثا عن أخته كما أمره أباه ، بعد شقاء البحث تفاجأ بوجودها مع تلك النجمة كما كان يلقبها في قرارة نفسه، أبطأ خطواته وبقي يُراقبهما عن بعد يمكِّنه من سماعهما.

- إذن قدس أنت يتيمة مثلي الآن؟
- شهقت قدس وحاولت تغيير الموضوع قائلة: وأنت قلت لي أنك من أب فلسطيني وأم بريطانية أليس كذلك؟

هزت ندى رأسها بخجل فهي تعرف أن ما قالته مجرد كذب، إذ أنها تتقزز كثيرا بمجرد تخيلها أنها تنتمي لوطن مجرم مغتصب للغير. ببساطة تشعر بالعار والخزي الذي لم ولن يتمكن أحد من تنظيفه. أما جوزيف فكأنه لم يكن موجودا، لم يهتم للحوار الذي دار بين الفتاتين بالقدر الذي اهتم به لحركات وإيماءات حبه الجديد، إلا أنه أفاق من غفوته فجأة حينما سمع قدس تتحدث مجددا:

- أتعلمين؟ أشعر بالقرف تجاه كل شيء ينتمي لهم، أسمائهم ،لغتهم، أساليبهم، لباسهم، أبنائهم، وكل شيء َيمت لهم بصلة يشعرني بالقرف، فحتى دراستي التي كانت تهمني جدا أصبحت لدي بلا معنى بمجرد أنها بلغتهم اللعينة، فألف تبا لهم ولكل من والاهم وساندهم حتى يوم الدين. في اللحظة التي تفتت أبي أمامي جراء قنبلة لعينة من صنع أوغادهم الكفار لعنت كل ذرة تنتمي لهم.

احمرت وجنتا ندى وكانت ستتعلثم في ردها لولا أن سمعت صوت أخيها ينادي باستمرار، تفاجأت حين رأته خيفة أن يفضحها، إلا أنه كان عند حسن ظنها لأول مرة إذ تحدث عربية مكسورة يعني بها العودة للمنزل. أما قدس فكانت شاخصة النظرات تحدث نفسها بصعوبة أن: إنه هو! وما كان من جوزيف إلا أن يواصل طريقه دون النظر حوله فلم يكن بقدر الجرأة التي تمكنه من ذلك.

توالت اللقاءات بين الفتاتين في أحد الأزقة التي تعج بعبق الياسمين تحت ظلال شجرة زيتون أخضر غرسها أحد القاطنين هناك، أو بجانب العم حكمت الذي يروي لهما حكاياه الممتعة، وربما تشربان أكواب الشاي التي تحضرها أم قدس، حتى توطدت العلاقة بينهما،و حدث أن باغتت ندى ذات يوم قدس بسؤالها عن إذا ما كان يمكنها البحث عن امرأة تشتغل كمساعدة منزليةٍ، فلم تتردد لحظة في موافقتها على ذلك وأنها ستلبي طلبها عما قريب. عادت مساء لبيتها وحكت لأمها الموضوع وأخبرتها أن لا تريد تضييع فرصة العمل هذه، فقدس تطمح حتما للفرار من غزة مع الشخص الوحيد الذي بقي لها من عائلتها، إلا أن ذلك يتطلب مقابلا كالعادة، لذا لم تشأ أن تضيع فرصتها أبدا.

اقتنعت الأم بعد محاولات عدة ووعود طويلة وإصرار ابنتها الممل، أخيرا زفَّت قدس الخبر لصديقتها التي رحبت به كثيرا.

عَملُ قدس في منزل خال صديقتها كما تزعم ترهات جوزيف، قد أكثر اللقاء مع الحبيب الجديد، ولا يخفى عن أحد أن هناك قصة حب مستحيلة تكبر بمياه الحقد الراكدة على هذه الأرض التي تصدأت جراء الحروب، فقدس كانت تتوق حتما لدخول علاقة جدية تربطها معه، فقد وجدته معينا لها في الكثير من المواقف ومحترما لأنوثتها ووحدتها في العديد من اللحظات الشيطانية بين عشيقين. لربما رأت فيه أيضا حنان أبيها وعطف أخيها، طيبة قلبه لا تعكس جنسيته ولا أصله. كان عاشقا لها لدرجة أنه يخاف عليها من نفسه، لكن ما خرب الموضوع أنه يكاد يجن لمعرفة الخطوة التالية التي سيقدم عليها؛ ديانة مختلفة وبلد متضاد وحرب بين الأوطان قبل القلوب، ماذا عساه يقرر وهو المزيف لحقيقته أمامها؟

بعد فترة شغلٍ طويلة أخيرا سيرتاح الضابط قليلا في بيته مع ولديه، وكان يعلم سلفا أن ندى قد أحضرت معينة منزلية فلسطينية، لمعت نفسه الشيطانية فرحا، وما أجمل إحساسا ممن يهين فلسطينيا وهو ذو أصل صهيوني؟ بالنهاية فإن هذا الضابط أحد أحفاد صهيون، وهو يحمل من الصهيونية في قلبه اليهودي ما يمكنه من القيام بأبشع الجرائم في حق

البشرية خاصة الفلسطينين. وجدير بالذكر أن الوحشية والبيروقراطية تتخذ منحى آخر في العالم، فبعد مرور عشر سنوات كما يزعم رؤساء العالم لن يبقى للدكتاتورية والوحشية والتمييز العنصري وجود في العالم الذي نعيش فيه ، إلا أن غزة مستثناة حتما!

في ليلة من ليالي جوان، أين تطول الساعات ويتعالى صوت الموسيقى الأرثودكسية في بيوت الكيان الصهيوني، تفوح رائحة القهوة البنية في الأحياء المختنقة دمارا كي تطرد النعاس من عيون أبناء فلسطين، وهناك في بيت جوزيف حفلة أقامها أباه وعزم أشباهه من ذوي القبعات الطوال والقمصان الطويلة الظهر، والشوارب الملتوية بلا لحية، إذ طلبت ندى مكوث قدس حتى انتهاء الحفلة وترتيب المنزل، بالكاد أقنعت الأخرى أمها، وفي المطبخ ذو الطراز البريطاني طلب الضابط من تلك الفلسطينية كأس ماء، مدت له بيديها الملطختين بآثار كعك الفول السوداني الذي حضرته بناء على طلبهم، فإذ به يمسك بأصابعها بدل الكأس!

دارت بين الضعيف والقوي زوبعة من الحركة اللامتناهية أنهاها جوزيف في آخر لحظة، تلك اللحظة التي كادت أن تقضي على شريف الأصل. بلا مقدمات ولا تفكير اختبأت قدس خلف جوزيف وكأنه جبل عاصم لها من الشرور، بينما كان الأخير يستشيط غضبا لسببين، الأول أن قدس آخيرا ستكتشف حقيقته المزيفة وأن هذا آباه لا سيدهم، والثاني ماذا سيفعل مع أبيه ذو الخلق الدوني؟

- إهدأ يا بني وامتص نظراتك الغاضبة هذه، كنت أعلم منذ البداية أنك تريدها، لكن دعنا لا نهول الأمور ونتشاركها سويا ككأس نبيذ حيوي.
- عفوا! بماذا تهذي؟ أترك الفتاة لحالها، وركز على هدفك فقط.
- هاها إنها من ضمن أهدافي يا ولدي، لكنني سأقدمها هدية لولدي الحبيب فأنا بالنهاية أبوك!

بمشية مستفزة حقيرة وبعينين ضيقتان يتطاير منهما الخبث والشرر استدار لإبنه قائلا: استمتع!

سكين حادة تقبع قرب صحن فاكهة، أخذتها بلا تردد وجعلت من رقبته التي كانت تزينها ربطة عنق حمراء شلالات من الدماء التي كانت تراها مياها باردة تطفأ لهيبها.

- أبي!
- قدس؟ ماذا حدث؟
- استيقظي يا أمي!
- ماذا هناك؟ متى رجعت؟

عدلت الأم جلستها مرتعبة من هول المنظر والدماء التي تكسو وجه وجسم ابنتها، كلها شلالات دماء ودموع.

- شدت على معصمها بقوة: تكلمي ماذا حدث؟
- إنهم ورائي، لنذهب من هنا!
- لا مهرب منهم إلا إليهم يا قدس، وحده المخطئ من يهرب أما أنت فلست كذلك، أولم تقولي لي أنهم جميعا يعملون في بيت خالهم الضابط؟
- بلى قلت.

وانفطر قلبها لتطرق متحسرة تارة كيف أهانها ذاك الكلب وكيف للذي أحبته أن يخدعها تارة أخرى، بل ويعدها أنه لن يفلتها أبدا وظلت تلوم نفسها وتجلد ذاتها، كيف للحمام أن يصادق الغربان! بل اتخذت نفسها خائنة لوطنها وأمها، كانتا تنتظران الفجر على أحر من الجمر، وما إن بزغ حتى غادرت روح الأم إلى بارئها، وتجاوزت آهات قدس عنان السماء.

الحيرة والحزن يدميان قلبي تناوبا، والخوف على نفسي يكاد يفتك بي، أتخبط بين جدران الغرفة السوداء ككرة مغلفة بغبار الزمان، لم يمر إلا يومان منذ ودعت أمي إلى مثواها الأخير لكن بالنسبة لي فهما سنتان أو أكثر، إني وحيدة كغزة بين العرب، عبارة عن كتلة بؤس مرميَة على شاطئ الوحدة مهمشٍة على حدود السعادة.

لا أستحضر عدد خيبات قلبي بقدر ما أحس بألمها كل حين كأنها للتو حدثت، فقدان أهلي، جوزيف الذي كسر فؤادي، وأخيرا أمي! ماذا بقي لي كي أخسره؟ متربعة على عرش دموعي التي جفت، فقد فشلت حتى في البكاء، لا أستطيع الإقدام على شيء ولا أعلم ماذا بعد؟ سمعت هذا الصباح من امرأة زارتني تطمئن علي أنه تم القيام بمراسيم دفن لأحد الضباط اليهوديين الموجودين هنا وأردفت قائلة أنه مات منتحرا ولا أحد يعلم السبب، وأضافت موضحة: قدس إنه سيد البيت الذي كنت تعملين فيه قبل موت أمك!

رحلت بعدما تمكنت أسئلتها التافهة وفضولها السخيف أن يدخلني في دوامة أخرى من التفكير، ترى لماذا ادعى جوزيف أن أباه انتحر؟

~

شعور الانتحار يشبه أن تتورط حبيبتك في قتل أبيك! أنا وندى وقدس أيتام بالفطرة، الآن نحن متساوون، بلدنا يتم قدس وقدس بدورها يتمتنا كما تقول ندى.

- جوزيف، دعنا نرحل من هنا أرجوك! فليس هذا مكاننا
- سنرحل لكن برفقتها يا ندى. رد جوزيف ببرود شديد
- بماذا تهذي؟ قدس تكرهنا. ألا تفهم؟ ولا تنس أيضا أنها قاتلة أبانا، لهذا دعنا نحمل أمتعتنا ونغادر هذه الفوضى للأبد.

إقناع أخي أشبه بسقي نبتة في وعاء من الرمل،لا فائدة ترجى منها. إنه يهيم بها، يحبها لدرجة أنه نسي أنها قتلت أبانا وجعلتنا أيتاما، لن أكذب لربما لم يعجبني وضع الاحتلال

كما أن قلبي يتقطع عند رؤيتي للفلسطنيين وهم يتعذبون، لكن أن أفقد أبي بسببهم فليس أمرا معقولا! ثمة أشياء لا يمكن استبدالها مهما حاولنا، لا يمكن أن نضع أحدهم مكان آخر، ولا أن نحب شخص بمقدار حبنا لشخص آخر، ثمة دروب في الحياة أجبرنا على الخوض فيها دون رضى منا، ربما القدر هو من ألزمنا على هذا. لهذا السبب أرسلت خطابا مكتوبا لقدس، وهذا الخطاب كان كافيا ليخفي أخبارها عنا للأبد.

بلغة انجليزية مسترسلة قرأت رسالة ندى وهذا ما كتبت:

"قدس غاليتي ! نعم لا تزالين غالية على قلبي حتى بعد فعلتك التي فعلت، الآن عزيزتي نحن سواسية، قضينا الدين الذي كنا نحمل، فبقتلك لأبينا أخذت ثأرك من الصهيونيين جميعا، خذي أغراضك وغادري، لا أعلم كيف وإلى أين ستتوجهين بالضبط، ما أعلمه أن جوزيف ذئب مجروح وفهمك كفاية، سيبحث عنك أبد الدهر! اهربي."

لم أجد بدا في كتابة بضع حروف أبعث بها إلى خائني ،وهذا ما كتبت:

"منا السلام ومنكم الحطام، منا الحقيقة ومنكم زيف الكلام، منا الحب ومنكم الآلام، أيها الصهيوني أعترف أني قد عشقت ما حدث بيننا، حتى إني عشقت ما لم يحدث، فخيالي لم يمسك عن ذكرك، قد كنت ضيف فؤادي ثم أضحيتَ بعد مدة سيِّده الحاكم، وإنك اقتحمت أيامي وملئت فراغي، حتى رأيتك قدري، وغدوت أدعو الله أن يجمعنا تحت سقفٍ واحد...

أما اليوم وقد انقلب حالنا إلى مالم نحسب له حساب، و أصبحنا نحمل في أفئدتنا وابلا من الهموم والعتاب، ونلوم الظروف ونلعن الأسباب، فإني أدعوك إلى الفراق،شئت أم أبيت، فلأغلقنَّ هذا الدفتر نهائيا، ولأخبئنَّك وخيبتك في ثنايا مهجتي التي تعودت على البؤس، والسلام الذي أخذته مني "

تركت كل شيء ورائي يا أحمد، كل شيء! بيتي ورائحة أهلي، أغراض نومنا وأثاث منزلنا، تركت حتى وطني وفررت هاربة نحو المجهول، وصلت لحدود نابلس وعلمت من أحدهم أنكم تمكثون هنا.

- والباقي تعلمه أيها الصاحب .

كان أحمد قد فرغ من البوح لصديقه، وأخبره بما يخفى في مكنونته، تنفس عميقا ثم جال بعينيه حوله فإذ به يلمحها من بعيد تكنس الأراضي مع بعض النساء، تبسم ضاحكا من طيفها اللطيف، وكزه أرسلان عندما لاحظ ابتسامته قائلا: تزوجها يا صاح، تزوجها على سنة الله!

اختفت تلك الابتسامة من وجهه فجأة وقال: أخشى أن يكون قلبها لازال معلقا بذاك اليهودي.

- هل بإمكانك سماع وجهة نظري؟ تحدث معها، اسألها بلا خجل، بالرغم من أني أخمن جوابها، فقدس ليست بلا كبرياء حتى تلقي في قلبها حب اسرائيلي كذاب .
- مستحيل ذلك، لن أستطيع حتى الوقوف أمامها فكيف لي أن أخاطبها عن أمر حساس كالزواج؟
- إن لم تفعل ذلك سأذهب مكانك وأحدثها عما يدور في سريرتك،وختم أرسلان كلامه بضحكة جانبية توحي بجدية كلامه ثم رمل واقفا لولا أن أوقفه أحمد.
- حسنا، أوافقك في تخمينك، لكني أحتاج القليل من الوقت حتى أهذب نفسي..

ولنا في الحلال اعترافات

حين أراه تسري قشعريرة في جسدي تشبه نسمات الهواء التي تفر من الطبيعة عند الفجر، وعندما أسمع صوته يخيل إلي أني أستمع لقلبي ينبض فأتأكد أني على قيد الحياة، عندما تركت جوزيف وتوفيت أمي قطعت الأمل وسئمت الحياة، حتى قلبي كنت أخاله ميتا ولن يعود حيا على مر الزمان، لكنه عاد! وعوده أحمد حبيب الفؤاد.

في صبيحة نوفمبرية باردة تحاول فيها شجيرات الزيتون أن تحمينا من الهواء الحاد، لكننا بالمقابل نقطف ثمارها ونلتهمها مع صغارنا لعلها تعيد لنا ما فقدناه من طاقة، لعلها تجعلنا نحس أننا لا نزال نمتلك حقا في هذا الوطن. كنا نحن النساء نتسابق لقطف ثمار الزيتون بينما الرجال يجمعونها في أكياس، تحسن مزاجي كثيرا خاصة بعدما عدت من مصر وأنا جريحة، وجدت الدعم والحب والاهتمام، وجدت كل شيء إلا أهلي فقد ذهبوا للأبد، فحتى لو غصت في أعماق السعادة فإني أتذكرهم وأتذكر أيامي الخوالي معهم فيا حسرتاه على زمنٍ مضى ومضت معه أرواح الأحباب !

دمعت عيناي واتكأت على صخرة فلسطينية صلبة قادرة على حمل ثقل همومي وجسدي في آن واحد، وتذكرت أهلي جميعهم وكيف كنت وكيف أصبحت؛ وحيدة مذعورة في أرض محتلة، لا أقدر إلا على الأنين والحنين والدعاء لله عز وجل. وبينما أحاول لملمة القليل من قلبي ناداني قلبي بصوت شجي، ذهبت إليه بسرعة كأن لم يكن بي علة قبل قليل، بناء على طلبه جلسنا بالقرب من واد صغير به آثار حرب لقطرات مطر نزلت البارحة، لكنها أضفت جمالا مميزا خاصة وأنها امتزجت مع شمس حارة وبرودة طفيفة، تنحنح أحمد قائلا بلا مقدمات :

- حين تزوج النبي محمد صلى الله عليه وسلم خديجة رضي الله عنها كان يقول لها: يا خديجة لقد تزوجتك فقيرا فأغناني الله بك! ولبث يذكرها حتى بعد موتها، فهل ترين يا قدس حبا أعظم من هذا؟
- كيف لي رؤية أعظم من النبي يا أحمد؟ فحتى صحابته ومنهم عمر رضي الله عنه قال: الحب مرض لا أجر فيه ولا عوض. فإن أحببت يلزمك التضحية والصبر بلا ملل.

أجبته وقد نالت مني الدهشة ، وتسائلت في نفسي: ما الذي طرأ على أحمد حتى يحدثني هكذا ؟ فبعد معرفته لحقيقتي أصبح قليل الكلام معي ، وإنه يتهيأ لي أني خيبت ظنه!

- حسنا ياقدس، ما رأيك بي كزوج فقير مقاوم أقتات على الجبال؟

قلت بلا تفكير ولا تردد:

- أنت شهم محارب لا يهزك الفقر ولا تخيفك الجبال.
- إذن هل لي بقدس للزواج يا قدس؟
- وهل أحمد يحبها يا أحمد؟
- لا أحسب أنك تشكين في ذلك، كما إني أشك في شعورك!
- إن بعض الظن إثم، وإن في الحلال اعترافات طويلة!

لا أملك غرفة لوحدي، ولا سريرا خاصا بي كي أدخل لغرفتي وأوصدها وأرقص فرحا، ثم أتمدد على سريري، وأنا أفكر بخاطبي الجديد! بل لدي سجادتي الرثة فقط، اتكأت عليها وشعوري متضارب، ها هو قلبي قد رقص فرحا بعدما ألف العزاء زمانا، عوضني الله بأحمد بعدما فقدت كل عائلتي وتعذب فؤادي ما شاء له أن يتعذب، ثم إنه الله الكريم ولكننا بشر يطغى علينا العجل ووسوسة النفس اللئيمة غير أنه الله! رحيم بقدر ماهو وهاب، كيف لي أن أنسى أنه جعل النار بردا وسلاما على ابراهيم عليه السلام، وأنه أعاد يوسف ليعقوب بعد سنين؟ كيف لي أن أخضع للشيطان والحزن ويغيب عن بالي أنه الله الذي أحيا

يونس عليه السلام في بطن الحوت؟ وأنه رزقني حبه، حب فلسطيني أنهكته الحرب لكنه قَّدم لي الحب كما لو أنه يعيش أمانا عجيبا! لقد احترمني واتقى الله في وحدتي وضعفي، حينما كان قلبي متعلقا بذلك اليهودي كنت أحسب أن جوزيف هو موسى الذي أعان امرأتان وحيدتان، لكن بعد الذي حدث أدركت أنه جاءعلى هيئة أحمد رفيق الفؤاد!

عندما أخبرني أحمد بقصده لزواجنا كدت أن أصرخ من فرط النشوة مثلما كنت أفعل أيام الجامعة حين أبصر أبي قادما لي مع هدية! لابد لي من تذكر أبي كل حين، وليس من المعقول أن أنسى حجر أمي الدافئ وغمازات بسام المثيرة ورقة أختي عفراء الجميلة، لا يا قلبي لا يمكنني نسيانهم ولو لحظة. كل فلسطيني يا سادة يحس بذات الإحساس، قلوبنا ليست صخور جبال نابلس، قلوبنا تصدعت وتصدأت من شدة الخيبات، نرى نظرات الإعجاب من العالم حين يتزوج أحدنا أو ينجب ولدا ونحن في حالة حصار! لقد حاصروا غزة لكن لم ولن يحاصروا أرواحنا ولا أحاسيسنا، لقد ولد المحتل قاسيا بالفطرة أما أنتم يا عرب قد قست قلوبكم رويدا رويدا، لكن نحن بنو صلاح الدين لا نرضى الذل بيننا، لا نقبل ذل الأعاجم للعرب، ولا لتطبيع الشرق مع أراذل قوم الدنيا، نحن بنو الطهارة عشنا لأجل نفوسنا وهويتنا وديننا ولغتنا، ولم يسبق لنا العيش لأجل براميل البترول!

شاعت أقوال من هم أراذلنا

بالّطبع يجوز والطبع أصلْ فينا

بالطبع بيت المقدس منهوب

وعادي أن يسكن غريب أراضينا

قد ألفنا موسيقى القصف صباحا

وبتنا لصوت الرصاص منتظرينا

وتبنينا التعايش المزيف عادة

وأحيينا العادة صدقا ويقينا

وجعلنا من الجبن قدوة لنا

وتقاسمناها وضيوف التسعينا

فأذن مؤذن من الجبال ينفي

قول الأراذل وأصلهم اللعينا

مصادقا أن فلسطين حرة

بالرغم من وجود الأراذل فينا

شاهدا أنها لم تخالط ذكرانا

بل رجالا أمثال صلاح الدينا.

أنهيت صلاة الفجر، سرت رعشة خفيفة بين ثنايا روحي حينما تذكرت طلب أحمد، حيرة أخرى وقعت فيها، ترى هل يتذكر أحمد أني لا أستطيع الإنجاب؟ أم أنه نسي الموضوع بتاتا؟ هنا نتزوج لأجل الحياة لكن إن شاء الله إيقاف هذه الحياة فما الذي يحدث؟ بقي خاطري مع نسمة الخريف يتأرجح ذهابا إيابا حتى جاءت الحاجة نورة وهي من الأخريات اللائي يعشن معنا،إنها أم لخمسة شهداء ،قلبها كالماء الزلال ،متينة في المواقف بقدر ماهي رقيقة في المشاعر.

- صباح الخير يا ذات العيون الحلوة، يا قمرا يبزغ نهارا!

هذه عادتها تجاملني كلما تراني.

- صباح النور يا حجة، معلش لو أشرب كاسة شاي أخضر من ايديك الطيبين؟

- مافي شك يا بنتي، لكن في شرط وهو لازم تحكيلي عن عصافير الحب يلي حطو امبارح بالليل على الزيتون.

لا مفر من خالتي نورة وأسئلتها الفجائية وأسلوبها الغريب في استدراج الضحية، بلا مقاومة ولا مهربة رويت لها ما طلبته، وانتهزت الموقف فحدثتها عن مشكلة مرضي ورأي أحمد فيه، فلم تخيب ظني إذ أمطرتني بكلمات كبلسم واق ومطهر للجروح.

- يا حبيبة قلبي، الإنسان ما يقنط من رحمة الله! وبعدين مافي دليل ملموس عمرضك، كلو تخاريف التكنولوجيا، انتي اتكلي على الله وخلينا نفرح شوي ونشوف قلبين مجتمعين على تلة نابلس.

بفضل الله ثم تشجيع أرسلان استطعت أن أتقدم لقدس وأن أطلبها للزواج مني، لم أتمكن من رؤية ردة فعلها فوجهها لازال لحد الساعة مختبأ عني، فلولا تلميحات الحاجة نورة لشككت أن قدس ترفضني، كما أنه يساورني الحزن حين أفكر بمرض حبيبتي وأنها تخال أني سأتراجع عن قراري حين أتذكر خطبها. كانت كلما تلتقي عيني بعينيها خلف الحجاب أنسى كل الكلام الذي كنت قد حضرته لها وأدرك أن العسل المحفور في بؤبؤها أشد أسرا من سجون الاستعمار، لذا قررت أن أكتب لها رسالة أفشي فيها كل سر وأطلعها على يوم الزواج الذي حددته:

"بسم الله عليك يا قدس، كيف حالك وأيامك؟ بالرغم أنه تفصلنا أمتار قليلة عن بعضنا إلا أنني أشتاقك كأن بيني وبينك سابع بحر، أحببتك قلبا يا عزيزتي وعشقتك شعورا يا حبيبتي واتخذتك بديلا عن كل الحياة! الكلام كثير لدرجة أن الكلام خجل من نفسه! ولكن أبشري فموعد عقد قراننا قريب وحينها لا مفر للكلمات من عيني لعينيك ومن شفتي لشفتيك والمتكلم أجدر! فوالله لا يضاهيك منزلة في قلبي إلا منزلة غزة! فأنت قدس وهي القدس، في فؤادي قدسيتان أخاف عليهما حتى من نفسي، فدعينا إذن نوطد علاقتنا هذه

قريبا وليكن ذلك الأسبوع القادم، لا تقلقي نفسك ولا تزعجي بالك بأي شيء، دعي الأمور تسير كما قدر لها، فأنا منذ خلقت على هذه الأرض المريضة وأنا أؤمن أننا مسيرون لا مخيرون!"

من قدس إلى أحمد:

" أحمد كم أحمد الله على لقائي بك، أتعلم أنه لا يضاهيك أحد مكانة في قلبي! أحبك بقدر ما عانت فلسطين، أحبك بقدر ما تشردت أيتام، وبقدر ما رملت نساء، أحبك يا نور عيني ويا ضوءا توهج في ديجور حياتي، فليكن الزواج غدا لا مانع لدي، الأهم أن أكون جانبك وأن تكون جانبي ولا يفصلنا متر ولا إثنين!"

وفي صباح يوم الخميس حضر الإمام الذي سيشرف على عقد القران، لم يكن مجرد عقد بالنسبة للعروسين، بل كان رابطا مقدسا وأفقا واسعا للمستقبل، الزواج يا سادة هو القوقعة التي تغلف المحبة وتحميها من منتديات الأهواء ومخزيات الزمان، الزواج هو ذلك الكتاب الحاوي أسرار ومبادئ العيش بأمان، بل هو الأمان الذي نفتش عنه منذ ولادتنا، هو الخيط الرفيع الذي نلف به جراح الدهر، والمعقم النظيف الذي نحافظ به على أنفسنا، هو طريق الطهارة والعفة وطريق لممارسة طقوس الحب تحت رحمة الله ورضوانه، لهذا فإن أحمد لم يرى الراحة إلا بعد أن وضع برنامجا لاجتماعه مع لوعة قلبه في ظل الحلال، ها قد حضرت الحجة نورة كأم العروس أما أرسلان وعمر فتواجدا كشاهدين على التحام فؤادين عشية خميس نوفمبري!

تم عقد القران، وترك العروسان لوحدهما قرب شجيرة زيتون صغيرة، وآن لأحمد أن يبصر ملامح حبيبته لأول مرة بعدما نال الخيال منه.

- مبارك يا أحمد.

قالتها قدس وهي تنزع الخمار عن وجهها ثم تبسمت من خجل أحمد الغير طبيعي، صمتت هنيهة ثم قالت بلا شفقة ومراعاة للضحية التي تقابلها: أرجو أن تتأمل زوجتك الجديدة قليلا يا أحمد !

هدأ الجو وساد الصمت بينهما، وسكنت الأنفاس وانطلقت العيون للكلام، وقد بهت أحمد بشكل غريب بعد رؤيته لوجه قدس ! كيف لا وهي ذات العيون العسلية التي تأسر قبائل وشعوبا، لا يسمعُ من العريس إلا تنهيدات وتنهيدات إن تدل على شيء فربما تدل على حب بطعم الخجل ممزوجا بدهشة خفيفة، أخيرا وبعد وبيلٍ من النظرات استطاع عريسنا أن يقول: الماضي ذهب بذهاب الأمس، وإني اليوم أحسني مولودا جديدا زار عائلة عقيمة بعد انتظار سنوات، تفهمين ما عشت وأفهمك أيضا، فقبل أن يجمعنا الحب جمعنا رابط فلسطين، وقبل أن أحببنا تفاهمنا، فالتفاهم ياقدس قائد الحب، وإنك وعزة الله تشغلين مكانا في قلبي ماسكنه أحد من العالمين قبلك، فلا تخافي ولا تحزني وقري عينا، فلن تفترق أرواحنا بإذن الله إلا بعد دفن أحدنا واستئصال روحه من جسده، شعرت قدس بمالم تشعر به من قبل بعد سماعها لما قاله زوجها، واكتفت بابتسامة تنمُّ عن طعم الحب الجميل، إلا أن تورد خداها قد أشعل حربا لن تضع أوزارها إلا بعناق دافئ، فدائما ماكان العناق مسلك العاشقين منذ الأزل.

في الليل أقيم اجتماع بسيط أشبه بالحفلة حضره جميع الموجودين في تلة نابلس، وقد شارك المقاومون أحمد فرحته، وأضاف أرسلان لطافة وفكاهة للجو، الطيور على أشكالها تقع والمحبون الطاهرون أيضا على أشكالهم يقعون، وقدس وأحمد وقعا جنبا لجنب والحاجة نورة وأرسلان والبقية جميعهم من نفس سلالة الطيور! عامل مشترك غير عامل البشرية يجمعهم: إنهم من غزة المحتلة، وكم يجرحني هذا اللقب!

منذ سنة تقريبا أصبح هدفي هو أن أكون زوجة أحمد، لا يهمني كيف بقدر أهمية متى! كانت حفلة بسيطة جدا، لكن مشاعرنا كادت أن تفوق ضخامة الجبال الفلسطينية، وبعد

قرابة الساعتين من الزغاريد والفرح والتهاني، آن أن نجتمع حيث سنخطط لبداية جديدة ومنعطف آخر في حياتنا.

~

ها قد مر أسبوعان على زواجنا، سعيدة لدرجة أني لم أتمكن من التعبير عن سعادتي فاخترت التزام الصمت، خاصة أني أحس حقا بالنقص والضعف، صحيح أن أسبوعين ليست حجة دامغة لعدم قدرتي على الإنجاب، لكن الوقت يمر بسرعة كبيرة في هذا المكان، يمر وهو يسرق منا أرواح أحبابنا واحدا تلو الآخر، وحين نتفاجأ بمروره السريع نعض أصابعنا بشدة ونحن نلعن هذه الخسارة الفادحة، إننا نحيا لأجل الخسارة أوالربح، والأمر جدي لا يقتصر فقط على شرب فناجين قهوة أمام القنوات الفضائية التي تزين شاشاتها بالأحمر العاجل حول قصف أراضي غزة! لذلك كنت أدعو الله أن أصبح أما لشهيد على أرض كنعان الأبية.

قد لاحظت الخالة نورة شرودي الدائم خلال جلوسي معها، إذ أنها تدرك جيدا ماهية مشكلتي، فذات مرة قالت ومن دون مقدمات: عسى مولانا يعطيك ماتتمني يابنتي، طمني حالك وانتبهي على أحمد.

فهمت من كلامها أنه لابد من التركيز على أحمد بدلا من الشكوى والتذمر بلا سبب، لربما بالغت في هذا الأمر! لربما خضعت لأنانيتي وأماني ونسيت أن أحافظ على أمنيتي التي تحققت حديثا!

سأنجب فلسطينيا!

أن أرى بريق عينيها كل صباح يكفيني، أن ألمس يديها وأقبلهما يكفيني! أن أستنشق أنفاسها وعبيرها كل يوم يكفيني! أن أداعب خصيلات شعرها بأصابعي قبل النوم يكفيني! أن أراقب تقاسيم وجهها وهي تتحدث عن موضوع ما يكفيني! أن أتأمل التجاعيد حول

شفتيها حين تبتسم فتثير زوبعة من النشوة داخلي يكفيني! أن أصغي باهتمام لأصواتها المزعجة حين تغضب يكفيني! أن أعيش مع قدس على أرض القدس يكفيني ويغنيني عن كل العالم! لا يهمني المستقبل ولا يهزني تذكر الماضي ولا تخيفني تقلبات الزمن وتغيراته مادمت قربها ومادامت قربي، أحبها على أرض مغتصبة بقلب مجروح به آثار معارك وحروب، الحرب لا تزيد قلوبنا قسوة يا سادة، بل تزيدها لينا بقدر ماهي مشوهة! فثمة تشوهات لابد منها في حياتنا لإضفاء شيء جيد كالحب مثلا، فمن العيوب ينشأ الحب، ومن النقصان يخلق الحب، ومن الضعف ينمو الحب، ومن الجروح يخرج الحب، لا يغريك الثراء والجمال حين يمتزجان مع الحب! لا تسيء فهم الحب، فالحب للضعفاء الفقراء البؤساء ذوي القلوب الطيبة الحنونة التي شوهها الزمن المشاغب .

ها قد قدم الشتاء ومعه قدمت أبشع صورة للاستعمار، فيه يمتزج البرد بالجوع وتضفي عليه الحرب نكهة مرة بطعم العلقم. على أرض كنعان تطول الساعات، الفراغ يملأ المكان، والعزلة تقبع في كل زاوية منها، الجبال تزداد قسوة في فصل الشتاء كما هو الحال لجميع الكائنات، الماء يقسو، والصخر يقسو، والحيوانات تقسو على بعضها وعلى نفسها، والعالم باستثناء فلسطين قاس جدا، فيختبيء خلف بطانيات القطن ومدافئ الغاز ويرتشف المشروبات الساخنة وهو يشاهد خبرا عاجلا مكتوبا بالبند العريض بلون أحمر مستفز على شاشة التلفاز لإحدى القنوات التي لربما أخطأ في مشاهدتها، فغالبا ما يتجنب تأنيب ضميره، فيكتفي بمشاهدة الأشرطة الوثائقية التي تصف حياة الثعالب. هنا، في غارات نابلس الوضع يزداد سوءا وإشاعة تفيد بوجود قصف صهيوني بعد أيام.

- سيكون الأمر صعبا على قدس يا أرسلان.
- بل علينا جميعا يا أحمد!
- آه! اسمع أنت تعرف جيدا منزلتك عندي، هي بقدر مكانة سامر أخي رحمة الله على روحه.

- أبادلك نفس الشعور يا أحمد والله!
- تمام اذن ،لا أوصيك بشيء إلا بقدس!
- إتق الله، إن شاء الله مانشوف فراق يا أحمد.
- الحمد الله دائما وأبدا، هذه وصية شخص عادي، لا تتوتر، فنحن ألفنا الأعاجيب والفراق والوداع وكل أنواع الإبادة الروحية. المهم لا تنس وصيتي مهما حييت يا أرسلان!

بعد حديثي مع صاحبي، لجأت إلى أميرتي كي آخذ بركتها، فهي ملاذي بعد الله، متوتر ومتردد جدا لمفاتحتها في هذا الموضوع المحزن، لكن يجب علي إخبارها بأية طريقة. سميت الله عند دخولي: السلام عليك يا سلامي، هل ما زلت نائمة؟

- لا، ولكن البرد في الخارج كثير لم أستطع تحمله.
- حسنا، أظنك تحتاجين مدفأة في الحين.

وقبل أن تجيب أخضعتها لعناق طويل يحمل أطنانا من الشوق والحب والحيرة في آن واحد، وبدأت أتمتم في أذنها: أنت تعلمين أننا نعيش في فلسطين يا قدس، ويكفي أن أقول فلسطين ليتسنى لكل سامع أني أقصد المعاناة والحرب والفراق والدم، أقصد كل خراب قد يحصل، وليكن في علمك أيضا أنه لا يمكنني تخيل نهار واحد من دون رؤيتك، وأنه حين يؤذيك أحد أغصان الزيتون المتواجد هنا أتأذى ضعف ما تتأذين، هنا في هذه البيوت التي نتشاركها مع جيراننا الذين لم نكن لنتعرف عليهم لولا الحرب. يتواجد دفء عميق، ليس دفء المال أو المصالح، بل دفء المحبة والألفة التي تساعدنا على الاستمرارية فوق هذه الأرض والتعمير فيها للأبد. أما الغارات التي تخترق الجبال ومنها هذه التي تتواجد على جبال نابلس فهي شاهدة كشهادة الشهداء رحمهم الله على كل قطرة دم نزلت من أحدنا، وعلى كل صوت بكاء لرضيع، وعلى كل صرخة لأم، فهي التي تحمينا حين يقصف الصهيون، لكن يا حبيبتي لقد قرروا أن يفجروها أيضا وأن يسكتوا شهادتها كما فعلوا مع

بقية العالم، والأبشع من ذلك كله أني مطلوب لسجنهم بصفتي من الثوَّار المثيرين للشغب والمشجعين على التمرّد!

~

عناق من أحمد يأخذني إلى الأمان الذي حرمنا منه في غزة، نال مني برد الشتاء هذا الصباح ولم تعد جرعات النار المولعة بالحطب تكفيني، غير أنه لا يمكن بشكل من الأشكال الوثوق في الزمن ودهاليزه، لم أتفاجأ حين أخبرني أحمد بما سمعه، لكنني خفت أن يذهب عني ولا يترك جزءا منه عندي، تركتها على الله وطمأنته أن كل شيء مقدر سيحدث، وحين غادر أحسست بالتقييد فعلا ولو لم تحضر خالتي نورة لربما لثمت وجهي بينما أقصد لثم حظي، حينما أبصرت ابتسامتها خف قلقي قليلا.

- كيفك يا عروستنا، شو مسوي فيك البرد؟
- الحمد الله كيفك أنت؟
- لا تحاولي تغيير شي، القلب لما يكون مهموم يفضحو الوجه، ووجهك اليوم فاضحك ع الآخر.

لم أجد ما أجيب، لهذا ارتميت في أحضانها وبكيت كما لم أبك منذ موت أمي، كانت تداعب شعري بيديها وهي تقول: هدي يا قدس هدي، وحين هدأت استأنفت: في شجرة ذكرها الله في كتابه، السدرة! هززت برأسي وأنا أعني أني أعرف ذلك، يا بنتي بيقولو أنو ورق هالشجرة مفيد كتير للنسوان. فهمت قصدها مبدئيا، كنت مستعدة لفعل أي شيء يكون سببا في قدرتي على الإنجاب.

في الصباح التالي، جاءتني خالتي نورة مسرعة، ذهبت معها إلى حيث أرادت، مشينا كثيرا ولكن حكاياتها التي لا تنتهي قصرت الدرب، ثم أخيرا توقفت أمام شجرة كبيرة عتيقة

عميقة الأغصان وقالت: هي يا بنتي هي شجرة السدرة، بتعرفي أنو أغلى عسل في العالم هو عسل السدر؟ فقلت: لا ماكنت أعرف هالشي لولاكي يا خالة.

- معلش، خلينا نبلش في نبش أوراق هالسدراية.

وما أن بدأت في نزع هاته الأوراق الصغيرة، حتى غدت يدي حمراء، فالأشواك تغزو هذه الشجرة من كل الجوانب. التفتت للخالة بدهشة وقبل أن أقول شيئا قالت: هي الحياة يا قدس، مافي شي سهل أبدا، بالحب في تضحية، مثل هي الشجرة يلي قدامك مليانة عسل ومن تحت شوك حاد كتير.

دائما وبعد كل يوم آخذ درسا هاما من هذه المرأة التي ملأت فراغي حين غاب زوجي. رائعة هي الحياة حينما تعج بأشخاص نستمد منهم تجاربهم ومعلوماتهم التي جمعوها طول أعمارهم، مكوثي مع هذه المرأة علمني الكثير، هي صديقتي الحقة، لا تهم الأعمار ولا الاختلافات في أي علاقة كانت مادامت الأرواح متآلفة، بفضل صديقتي هذه أنا الآن حامل في الشهر الثاني. فرحتي بهذا الخبر تعادل فرحتي لاستقلال فلسطين، شكرتها مرارا على العلاج الذي قدمته لي، لكنها اكتفت بأن قالت أن هذا بسبب إيماني. الإيمان، كم أحب هذه الكلمة، إنها تعني الحياة والأمل والثقة، تعني الحل لمشكلة مستعصية الحل والتحليل، تعني ابتسامة أحمد حين أخبرته بحملي، أنا حامل الآن وسأنجب فلسطينيا إن شاء الله.

لكل أمَّة أجل!

الآن حتى إن حدث لي مكروه فإني سأترك جزءا مني معها، الحمد الله، ها قد اكتملت فرحة قدس أخيرا، حينما أخبرتني بالأمر تمنيت لو كنت بجانبي يا أمي، ترى كيف ستكونين، آه كم اشتقت لابتسامتك الطيبة، لا شك أنه قدر الله لكن ما الغاية؟ لماذا كتب علينا القهر واليتم والفراق؟ لماذا خضعنا لواقع أليم ومزرٍ؟ لماذا لا نبدأ بشراء الثياب والأسَّرة لحظة حمل زوجاتنا بل نكتفي بتحضير ما سنقوله ونعلمه لذلك الرضيع؟

اشتقتكم كثيرا، اشتقت حتى قبوركم، أليس لنا الحق في قبر؟ أرأيت بشاعة الخراب الذي فرض نفسه علينا منذ نباح بلفور! إشاعات عديدة توحي بقصف نابلس الأيام القادمة، لا أكذب عليك، لأول مرة أنا خائف يا أمي، ليس على نفسي والله، بل على عائلتي التي كونتها للتو، وما يقلقني أكثر أنني مطلوب لعدالتهم الظالمة، فهم يفتشون عني في كل مكان. أخاف أن يمسكوا بجسدي وأن أترك نبض قلبي مع قدس.

وبمرور الأيام التي لا يجددها إلا زيادة حجم بطن زوجتي حدث القصف على حين غفلة منا، أمطار تتساقط هنا وكريات نار تعلو هناك، وشلالات من الدماء اختلطت بالمياه. صراخ يتحدى الرعد في قوته، ببساطة مشهد يقطع القلوب يا أماه. اختلطت الأمور وانتشر الضباب وغبار المتفجرات،أُغمضت عيني فجأة ولم أعلم ما الذي حدث بعد ذلك، حتى وجدت نفسي في زنزانة حديدية مع مقاومين أخر.

~

منذ موت أبي لم أخف هكذا! نعم لقد خفت، حتى أنني اختبأت في إحدى المغارات، اختبأت مع ذلك الجنين الرابض بين ثنايا رحمي، وأغلقت أذناي وعيناي ودعوت الله كثيرا لينصرنا، تقوقعت على نفسي كأني أحد اليتامى الفلسطنيين، كأنني "محمد الذرة"، وكأني جميع الذين استشهدوا تحت وقع الاحتلال الباغي.

ثمة مشاهد لابد لها أن تتكرر، ونحن في بطون أمهاتنا يمر علينا شريط حيواتنا، وحين نولد أيضا، وعلى مر السنوات التي قدر لنا أن نعيشها سنرى مشاهد كأنها كتبت من طرف مخرج واحد، كأن نرى مشهد الألم أو الفقد، أو الحب حتى! وتظل هذه الآية تتكرر حتى يبلغ السيل الزبى، فإما أن نمل الروتين المعتاد وتموت مشاعر الإحساس لدينا فلا نجزع ولا نتزعزع لحدوث شيء ونكتفي بالابتسامة في وجوه الذين يعزوننا، أونتميز بالتنبؤ فنتنبأ

بالحدث المزعوم تبعا لما تعرضنا له، ونعيد نحن كذلك نفس المشاعر والملامح والدموع في دائرة لا متناهية كأنها المرة الأولى التي يحدث فيها هذا.

في فلسطين أيضا تنقسم الطباع، بالمقابل تتوحد الأهداف والغايات. قدس كانت من النوع الثاني، إنها تكاد تجزم فقدها لأحمد، حتى أنها لم تتفاجأ حين أخبرها أرسلان بصوته الجوهري المستعصي الفهم الذي إذا دل على شيء فإنه يدل على تعب وفقد وألم يحس به ذات الشخص في نفس الوقت، بينما لو هاجر إلى أحد البلدان وشارك في برنامج غنائي لأصبح مثالا يُحتذى به عن المقاومة بالمظاهر. تبا!

هاقد عاد لقلبها العزاء بعدما كان مرتاحا لبعض الوقت! ثمة إحساس لا يتكرر مرتين، شأنه شأن الحب، وهو أن تكون بين البينين، أن تفرح وتحزن في نفس الوقت، أن تبكي وتبتسم مرة واحدة، أن تشعر بالأمان والحرب في آن واحد، أن تستشعر الفقد بينما تكتسب شيئا آخر. إنه إحساس التضاد، تجتمع الأشياء المتضادة في القلب مرة واحدة نظير الظروف المتعاكسة التي تحدث في حياتنا.

بين البعد عن أحمد والقرب من أحمد الصغير كانت تعيش قدس حالة من الصراع، أتحزن لفقدها أحمد كثيرا، أم تفرح بمولودها الجديد الذي أسمته الحجة نورة أحمد، بالرغم من أنه لم يرق للأم، فهي لا تزال تؤمن بوجود زوجها في هذه الحياة، رغم أن كل الأخبار والعلامات تشير إلى العكس، فلا أحد يجزم بنعم أو لا في أرض كنعان، هنا يعيش مبدأ الاحتمالية دوما.

~

يوما بعد يوم تزداد الأمور سوءا، قيل أنهم أحرقوا خمسين رضيعا في منطقة حيفا، الحجة نورة على فراش الموت، أرسلان محتصر في الجبال لا يستطيع النزول إلا في الليل، أحمد لا أخبار تصلني عنه ولا أعلم أهو حي أم ميت لا سمح الله! ضاق بي أمري

ذات ليلة، أحسست بالوحدة التي فارقتها زمنا، لربما اشتاقت إلي فعادت، ماذا لو عاد إلينا كل ما افترقنا عنه؟ أحسست بالضعف، شعرت بنكسة أخرى في قلبي، توضأت وصليت ركعتين قبيل صلاة الفجر، ولم أجد بدا إلا أن أكتب برسالة إلى حبيب قلبي أحمد:

"أحمد، الحمد لله على كل ما ابتلانا، سواء كنت حيا أم فارقت الحياة لا قدَّر الله، لكن فلتعلم أن البعد عنك في كل الأحوال هو عزاء لقلبي لا يعظمه أجر، ضاقت بي روحي يا روحي، لا أريد إلا عناقا منك يغمرني بين أحضانك فأشعر من خلاله بالأمان الذي ذهب بذهابك! كم أتمنى أن تكون بخير! كم أتمنى عودتك لنابلس، وأكبر ما أتمناه أن ترى أحمد، نعم لقد أسمته خالتي نورة أحمد، لم أحبذ الأمر، فهي إشارة إلى أنك توفيت، إلا أن خالتي طمأنتني ونصحتني بأن اسمك سيظل خالدا على هذه الأرض. شهران فقط ويصبح عمره سنة وستة أشهر وبعض الساعات. لقد بقيت من دونك وحيدة مكسورة الجناح، كعجوز عاركت الحياة حتى نالت منها! لا أخفي عليك سرا يا أحمد أني أصبحت ضعيفة بعد ولادتي لأحمد الصغير، أصبح نقطة ضعفي خاصة في بعدك عنا، أحيانا أتمنى لو نرحل سويا بعيدا عن هذه الأرض! لا تحسب أنني أنانية يا أحمد، ففي الحب يجوز ما لا يجوز في الحرب، في حربنا هذه سنعزم على المكوث والمحاربة لأجل فلسطين، كما في حبي لك ولابني سأعزم على الهروب لأجلكما فقط! ألا يكفي أني فقدتك؟ فقدت أهلي، فقدت وطني وأمني، طفح الكيل يا أحمد، أملك بعض المال لذا سأتفق مع أرسلان كي ينظم لنا طريق الفرار، لربما غدا، لا أعلم. كل ما أريده هو الهروب وفقط! أتمنى العيش بسلام ولو للحظة واحدة، لحظة سلام كعناقك! كنظرة عينيك، كوجودك قربي لحظة ولادتي بابنك! أعلم يقينا أنك تتفهمني يا أحمد، ولهذا أنا لست مترددة في قراري، إن كان هناك قدر لعودتك وقراءة هذه الرسالة فالحق بنا! والسلام عليك يا كل سلامي."

طويت الورقة خبأتها في وسادتي، ثم استلقيت ونمت حتى الفجر، توضأت كالعادة وهممت بإيقاظ الحجة نورة، لكن..

- أرسلان، عمر، إنا لله وإنا إليه راجعون.

ماتت خالتي نورة وتم دفنها قبيل صلاة الظهر، لم يحضر جنازتها إلا بعض المستقرين في نابلس، أما البقية فهم منشغلون بجنازات وجنازات. جميع أهلها قد سبقوها للموت، هي سبقتني، وسيحين دوري يوما ما، ما يبث فيَّ الرضى والإيمان بعدل الله أن الدنيا فانية لا محالة، كلنا سنكون سواسية ذات يوم، سنحاسب، سنلتقي، سألتقي أهلي، كم اشتقت إليهم يا الله، أحس بقلبي يتفتت بين أضلعي، أين أنت يا أحمد؟ لما غادرتني! كلما زادت وحدتي، زادت تخاريف فؤادي، فأصبحت أحدث ابني وهو نائم وأحكي له كل ما يعتريني من هموم وغموم، أراه يكبر أمامي شيئا فشيئا، سعيدة به بقدر حزني على واقعه. سمعت وقع أقدام، لففت بحجابي وخرجت.

- السلام عليكم يا أم وزوجة أحمد.

ابتسمت لكلام أرسلان، فهو نعم الصاحب والله، لم يقصر معنا منذ اختفاء أحمد، لكنه منشغل في حفر كهوف في الجبال، وكم هو أمر متعب أن تقضي شبابك في الحفر بينما أمثالك يمارسون رياضة السباحة!

- وعليكم السلام يا صاحب أحمد.

راقني ردها كثيرا، بالقدر الذي راقني فيه كيفية إدارتها لشؤونها بعد اختفاء أحمد، نعم الزوجة هي، فقد صانته لحد كبير. بعد أن داعبت أحمد الصغير فاجأتني قدس بقرارها الجديد، لم أجد إلا ردا واحدا: من دون إذن أحمد يا قدس؟

- لا يا أرسلان لقد استأذنته.

ومدتني بورقة علمت أنها رسالة له ثم أردفت: ما عليك فعله هو تهيئة الطريق لنا فقط، لا تشغل بالك، والله إن قراري فيه مصلحة للجميع، حتى أنت ستشتغل مرتاح البال.

- أي راحة يا قدس؟ أتحسبين الذهاب بمفردك أمر سهل ومعك رضيع لم يتجاوز السنتين؟ أنتِ لا تدركين خطورة الأمر!
- بلى أدركها جيدا يا أرسلان، أفضل أن نموت جوعا، عطشا، مرضا، كخالتي نورة، على أن نموت بقصف يقطع جسد ابني، حين يكون لك ولد ستفعل مثلي بالتأكيد.

بعد جدال طويل أدركت أنها على حق، تذكرت حمزة صديق أحمد، سيكون هو الواسطة حتى تصل عائلة صديقي بخير. حينما أفلت الشمس تم الأمر، قبلت ابن صاحبي وأوصيت قدس بنفسها وابنها خيرا، دعوت لهما وتركتهما في رعاية الله وحفظه، إلى أجل غير مسمى.

أليس الصبح بقريب؟

خلف جدران عاتمة كقدري أمكث مع مجموعة من المساجين أمثالي، نتشارك أحزاننا ونبثها لبعضنا البعض، نختلف في العمر والشخصية والتفكير، لكن ما يميزنا هو النضال! ففينا من فقد ابنه أو أخاه أو أحدا من أهله، وهناك من ترك أهله في حيرة عليه، منا من يقبع هنا لأكثر من عشرين سنة، ألهذه الدرجة هانت أحوالنا على كل العرب؟ أم قد قست قلوبهم! ففي أحد البلدان العربية قاتل النفس يبيت ليلة مريحة بالقرب من وكيل الجمهورية، ثم يغادر السجن صباحا برشوة ضخمة! بينما في غزة فإن المواطن الذي يذود عن نفسه وأهله ووطنه يُزجُّ به في سجن الأوغاد. خلال ساعات النهار الطويلة التي أقضيها رفقة أحدهم كي لا أحس بثقلها تتسابق إلى مسامعنا الإشاعات التي يحاولون بها قتل أنفسنا قبل أجسادنا، فيفتح أحدنا موضوع نقاش لا نغلقه إلا حين يزورنا المساء.، أما ليلا يا أماه فيسيطر عليَّ الضجيج، ضجيج الأفكار والمشاعر بالرغم من أن حولي سكون غريب! قد تركت خلفي نبضي، وجئت إلى السجن حافي المشاعر بلا قلب! يا ترى كيف حال أسرتي يا أمي؟ يا

ترى كيف شكل ابني الذي لم أحضر ولادته؟ يالكمية الهزيمة التي تعتريني وأنا أسيرُ هنا! يالعجزي واستسلامي لهذا الواقع! آه كم أنا مشتاق لحبيبتي! أرجو أن تكون بخير، أرجو أن لا تجزع لفقدي وأن تؤمن بالقدر الذي فرقنا. كلام كثير بين شفتي يحرضني على البوح يا أمي، كالبوح لك مثلا بين أوراق مهترئة أحملها في جيبي منذ أن أخذك الموت رفقة البقية! وبما أن الفراق قد حال بيني وبين قدس، فإني أزحتُ القليل من نار الشوق عندما بدأتُ في كتابة بضع رسائل إلى قدس ،أهوِّن بها عن نفسي وأعزي بها فؤادي .

"قدس، إنه لثقيل على قلبي أن أفتقدك وأفتقد القدس في آن واحد، لم يهن علي اشتياقي لولدي ولا حضور ولادته ومخاضك، ولم يهن علي تركتك تقاومين كل هذا بمفردك، والله إنه لثقل كبير ما يحسه قلبي هذا الحين! في ذاك القصف الشنيع أخذوني غدرا، لم يتركوا لي المجال حتى لعناقك، كان بودِّي لو آخذ جرعة حب منك أحتمي به من صقيع قلوبهم، لكن كدأبهم النذل، فإنهم حالوا بيني وبين سلامي! كيف حالك يا بردي وأنا في النار، يا نوري حينما كنت في الظلام، يا سلامي في أوج القتال، يا أملي حين فقدت كل الآمال، يا ليني في قسوتي، يا قوة في ضعفي، يا حبا في كرهي، يا قدس قلبي كم اشتقت لك! طمئنيني عنك ولو في المنام! لعلها تلتقي أرواحنا ليلا فتتعانق وتُنقص قليلا من عناء فراقك! والله إن البعد عن عيناكِ علقم لا يُخفي مرارته إلا طلتك الخرافية عليَّ ذات ليلة من ليالي سجني الثقيلة! صدقيني لم أعد أعلم ما عليَّ فعله! إني عاجز كل العجز، كعجز عشرينيةعلى الزواج، مقيَّد بسلاسل تمنعني من العودة إليك وإكمال عهد المقاومة. مجبر على المكوث في هذا المكان النجس بوجودهم، ببساطة عاجز عن كل شيء، إلا عن حبك، فإني أحبك كل لحظة أكثر!"

طويت الرسالة و وضعتها تحت وسادتي التي يكسوها الغبار، ثم فجأة انتبهت إلى أحدهم يهمس لآخر: خليها ليوم تاني يا صلاح!

- شو؟ أنت خايف ولا ايش؟

- مو هيك، بس في حدا منتبه معنا!

والتفتا إليَّ كلاهما، شابان أُلْقِيَ عليهما القبض قبل شهرين، يصغرانني بأربعة أعوام، يشتغلان ضمن التيار الثوري. خلال هذه المدة تمكنا من إيجاد مهرب من هذا السجن، هكذا هي الإرادة، لا يتحدثان كثيرا معنا، كان جُل وقتهما يذهب في حديث خاص بينهما. كنت أنتبه لهما كثيرا، إني معجب بشجاعتهما، وهذه الليلة ربما انتهت خطتهما ووصلا لآخر مرحلة فيها، لكني أفسدتها عليهما كما يظنان! اقتربت منهما قائلا: أنتما تشُكَّان بأبناء بلدكم! لو كنت مكانكما لفعلت ذات الشيء باستثناء أن أشك بأهلي!

- لم ولن نشك، لكن خطة الهروب نجاحها ضعيف وحبذا لشخصان أو أقل أن ينفذاها، لو أخبرنا الجميع لأراد كل واحد منهم الهروب. قاطعه الآخر : تمام، خلينا نهرب ثلاثتنا ومانضيع وقت . ثم التفتا إلي.

- حسنا، سأهرب معكما!

~

أسبوع مرَّ منذ فررت مع ابني، أسبوع فقط لكني أحسست أنه سنة، ألهذه الدرجة صعب هو ترك فلسطين؟ في إحدى القرى المصرية أجدني وعائلة حمزة الذي ضيَّفنا عنده لا نكفُّ عن مشاهدة عاجل الأخبار، فلا يمر يوم إلا ويتم قصف بلدي، بينما ننام بهناء وسكينة هنا فإنه في مكان ما يبعدنا بالكيلومترات أجساد تتسابق لتدخل القبور، وعيون دامية جرَّاء الدموع، ناهيك عن البرد والجوع، والحسرة تقطع القلوب والضلوع، أيتام بالآلاف، ومشردون يترامون في مختلف الربوع، وأنا وابني أيتام و مشردون في آن واحد! يجب عليَّ الوقوف، إلى متى سأظل عبئا على هذه العائلة؟ أحمد ذو السنتين أصبح يفهم ويتكلم ما شاء الله له أن يفعل ، لهذا سأبحث عن عمل سريعا.

حين جن الليل وأثناء وقت النوم جلست وزوجة حمزة نتبادل أطراف الحديث، فباغتها قائلة: فيني أطلب طلب؟

- أكيد يا أختي..
- بدي أشتغل وأبتدي أوفر مصاريف حياة ابني.
- أستغفر الله يا قدس، ايه اللي بتحكيه ده، مين اللي غلط معك ياختي!
- مو هيك الموضوع بالعكس انتو أكرمتوني وضيفتوني، وكرمكن خجلني، بس لإيمتا؟ أنتي حاكي زوجك وبعدين خبريني.
- أوامرك، تصبحي بخير.

في الصباح بعد صلاة الفجر بقيت أداعب أحمد وأستمتع بمشاهدة ضحكاته وتقاسيم وجهه الطفولية التي تعكس شخصا فارغا من كل هموم الدنيا، كم يسعدني ذلك، يسعدني أني أنقذت ابني من ذاك الظلام الدامس الذي يفتقر لكل نور ماعدا ضوء النيران وهي تشتعل في أراضينا أو أجسادنا. ثم أخذني تفكيري إلى أحمد، ماذا حل به؟ ما الذي يفعله؟ وبينما أنا في صراع مع الفراق والحيرة، دخلت زوجة حمزة تلقي التحية الصباحية، ثم وضعت لنا الفطور وغادرت، لا أستطيع الخروج ومساعدتها لأن لها ولدا كبيرا وزوجا، لكنها تدير أمري كأنها أم حنون، الحمد الله على فضله، شكرا لك يا أحمد لولاك ما كنا هنا. كنت أحدث نفسي وأنا أطعم أحمد الصغير، وكان بدوره يطعمني وهو يتأتئ "كلي ياماما الحلوة". تنهَّدت عميقا وأنا أكرر في نفسي :لا ينقصنا شيء سواك، هل عسانا نكتمل؟

بعد أيام تمكن أخي حمزة من إيجاد عمل لي في مجال الفلاحة، صعب الأمر عليَّ مبدئيا خاصة وأننا نختبئ عن الدولة خوفا من القبض علينا دون جواز سفر، مرت الأيام سريعا وكنت أقضيها في الاعتناء بأحمد والعمل من جهة أخرى، لا ترتسم البسمة على وجهي إلا حين مداعبتي لصغيري، أو حين حفر الأرض فتغزوني رائحة تراب كنعان التي كنت أستنشقها مع زوجي ، لتغريني هذه الذكرى البهيَّة فأبتسم رغما عن أنف الحاضر.

خطر ببالي موضوع الدراسة أحد الأيام فأوصلته لأخي حمزة مع زوجته، وهو أن يقوم بعمل الإجراءات اللازمة ليزاول أحمد الصغير دراسته دون مشاكل. أذكر أن المسكينة تفاجأت من طلبي، لكنها عذرت أنانيتي تجاه ابني الوحيد وكل ما تبقى لدي.

قد تقسو الحياة أشد القسوة على أحدنا، فتعيره عضدا يصبح أغلى من ذاته وينسى نفسه، يهتم به كأنه عيناه، يحفظه من كل سوء كأنه دينه ودنياه، يعشقه حد الجنون، بلا منازع يصبح أهم من نفسه ذاتها، ولا يحدث هذا الأمر إلا للآباء والأمهات! أكاد أحصي عدد المرات التي رأيت فيها أبي يشتري ثياب العيد، بينما من المستحيل أن أحصي كم مرة اشترى ثيابا لي، العلاقة بين الآباء والأولاد هي علاقة مقدسة لا تضاهيها أية رابطة، من اعتدى على طقوسها كفر بالمحبة النقية!

أكمل أحمد صلاة الفجر، ثم استأنف عبادته بقراءة بعض من آيات الذكر الحكيم على روح أبويه، وحين فرغ كانت الشمس تنتظر في الأفق كي تشرق، نادى صاحبيه اللذان رافقاه في الفرار من سجن الأوغاد، وجلسوا حول مائدة الإفطار ذات النكهة اللبنانية. لم يصدق أحمد ما حدث بالفعل وكيف فرَّ هاربا، ثم أقنعه رفيقاه بإكمال الهرب خارج فلسطين لأن القَّمل الصهيوني لن يلبث ساكنا وسيرد على هذا الفعل، لم يصدق أنه سيتخلى عن القدس، لقد دخل مرحلة الظلام السرمدية، صار مشتتا في ذاته، لكنه لم يسمح لنفسه بأن يفكر في الرجوع خاصة وأنه يجهل أمر سفر قدس وابنه أيضا، فظل حائرا أشد حيرة، وكعادته كتب رسالة لا يعلم أتصل لصاحبتها أم لا :

أأسلم عليك يا قدس أم أن السلام غادرنا للأبد! فكيف أحوالك؟ أما حالي فإنه حال بيني وبين عينيك دهور وأيام واشتقت أن أتأمل عينايا من خلال عينيك فأيُّ سلام وأي حال نتحدث عنه؟

ماذا عن ذاك الولد الذي كبر ويكبر من دوني؟ أتمنى أن تحدثيه عن أبيه المفقود الذي أحبه دون أن يراه! دائما ما أتسائل: هل مازالت تنتظرين قدومي أم أن اليأس غلبك؟ لكني عندما أتذكر وجود ابننا بجانبك أطمئن وتقر عيني؛ لأن الوحدة ياقدس هي رفيقة اليأس!

ها أنا برفقة شابان فلسطنيان كنت قد تعرفت عليهما في السجن، ثم هربنا سوية إلى لبنان، نعم هربت! هربت من دونك، من دون ابني، من دوني أصدقائي الذين تركتهم في نابلس! وبقيت أعارك أيام الزمن معاركة الأمواج للرياح، تارة أستغيثها فتداويني وتارة تعجز عن مداواة الجراح، وإن جراح القلب أشد الجراح!

أجهل ما الذي عليَّ فعله الآن، أأمكث كالجبان في هذا البلد الغريب عني، أم أعود أدراجي أين يقذفني اليهود في سجنهم المقرف؟

لولا لطف الله يا قدس لجننت وإني أدعوه ليلا نهارا أن يرزقني ثبات العقل ويجمعني بك وبالقدس...

فإني إما جالس أفكر في اللاشيء ولولا أن ينبهني أحد الشباب لكنت لبثت ساعات وساعات دون يقظة، وإما أني أكتب رسائل دون وجهة كالتي أخطها لك، تارة أحدث أمي رحمها الله وتارة أحدثك، ولا أعلم أتصل هذه الرسائل أم تمكث فوق أحد الطاولات تنتظر قصف الاستعمار ذات يوم !

كل ما أعرفه أنها تريحني كثيرا حين أكتبها!

كانت قدس على الجهة الغربية بينما هو يقبع في الشرق البعيد، وبينهما فلسطين. كل الأيادي ترفع لله في جوف الليل أن أنصرنا ولو بعد حين، ويؤذن مؤذن أن لعنة الله على الظلم والظالمين. وقيل أليس الصبح بقريب؟

انتهى